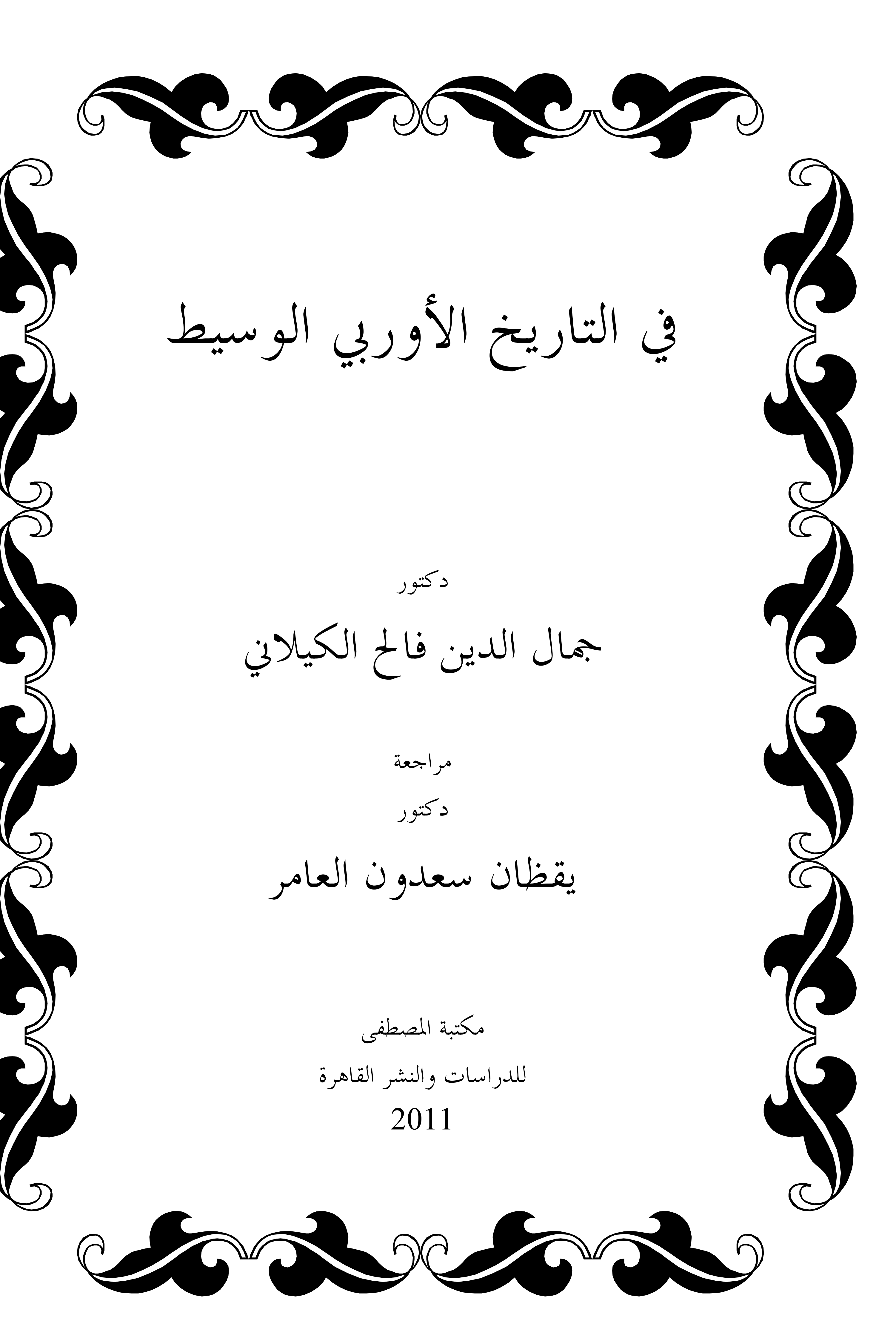


في التاريخ الأوربي الوسيط

دكتور

جمال الدين فالح الكيلاني

مراجعة

دكتور

يقظان سعدون العامر

مكتبة المصطفى

للدراسات والنشر القاهرة

2011

نظرة في التاريخ الاوربي وعصوره

اعتاد المؤرخون والمهتمون بالدراسات التاريخية على تقسيم العصور التاريخية الأوربية إلى عصور قديمة وحديثة تتبعها الأحداث المعاصرة. ولكن ما مصداقية هذا التقسيم من الناحية العلمية؟

إن تقسيم التاريخ إلى مجموعة من العصور ما هو في الحقيقة سوى اصطلاح الغرض منه تيسير الدراسة التاريخية؛ وتأسيسا على هذا فإن تقسيم التاريخ لا يعني بحال من الأحوال تجزئة الأحداث التاريخية أو تعميم مفهوم انفصاليتها "لأن تاريخ بني الإنسان يشبه في استمراريته الماء الجاري".. فالأحداث التاريخية لا تقف عند حد وإنما هي متواصلة لا تنقطع ما دام الإنسان على ظهر الأرض وهذا يشبه تماما الماء الجاري المتواصل في النهر.

ويبقى علينا الآن أن نعرف مفهوم العصر التاريخي وماهيته. فالعصر التاريخي هو حقبة زمنية من عدة قرون تتفاوت في عددها وتكون فيها أسس الحياة واحدة أو متشابهة أو على الأقل متقاربة إلى حد ما. فالعصر التاريخي يمثل حضارة ما من إنتاج العقل البشري تكون أحداثها متشابهة وتسير على نمط واحد متقارب. وفي حال تغير الأحداث المتشابهة إلى نمط حضاري آخر عندها ينتهي عصر تاريخي ويبدأ عصر تاريخي آخر جديد. وهذا ينطبق على أحداث التاريخ الأوربي القديم والوسيط والنهضة والحديث والمعاصر. وعلى هذا فإنه من الصعب حقا أن نحدد بداية عصر من العصور التاريخية أو نهايته بسنة معينة لأن التغيرات في الأحداث التاريخية تحدد بشكل تدريجي لا بشكل فجائي ومن هنا يحدث

تداخل بين العصر التاريخي السابق والعصر اللاحق له لأن كل عصر من العصور التاريخية له أذيال وتوابع[1].

وما يحدث للمجتمعات عند انتقالها من عصر إلى آخر يشبه ما يحدث للإنسان عند انتقاله عبر مراحل نموه المتعاقبة. فكما أننا لا نستطيع أن نحدد لحظة بعينها نقول إن الفرد ينتقل فيها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب أو من هذه المرحلة الأخيرة إلى مرحلة الشيخوخة حيث يمر الفرد بتغيرات فيزيولوجية وسيكولوجية معينة؛ فكذلك يعد من المبالغة أن نختار سنة بعينها لنقول أن العصور القديمة توقفت فيها عن السير لتفسح الطريق للعصور الوسطى مثلا[2].

أما العصور الوسطى الأوربية فأطلقها رجال العصر الحديث في أوربا ويقصدون من وراء هذه التسمية تلك المرحلة التاريخية الأوربية التي تمتد من سنة 476م تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب إلى غاية القرن الخامس عشر الميلادي. وبالنسبة إلى نهاية العصور الوسطى يعتمد المؤرخون الأوربيون أكثر على سنة 1492م الذي يتوافق مع اكتشاف أمريكا من طرف كريستوف كولومبوس ونهاية حروب الاسترداد في أسبانيا ويفضلون هذا التاريخ على سنة 1453م التي تتوافق مع سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين والتي تمثل بالنسبة نكبة كبرى للمسيحية.

وتذكر الموسوعة العلمية الرقمية أنكارتا أن مفهوم عصر وسيط Moyen âge استعمل للمرة الأولى من طرف فلافيو بيوندو دو فورلي Flavio Biondo de forli الذي كان سكرتيرا كنسيا في روما في كتابه بالإيطالية Historium ab inclinatione romanorum imperii décades والذي نترجمه بالعربية "حقب تاريخية منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية" ، وكتب هذا الكتاب خلال سنوات 1450م ونشر سنة 1483م. ففي هذا الكتاب يذكر المؤلف فكرة وضع بين

---

[1] ياغي(إسماعيل) وآخر، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر1984، ص ص. 9-10

[2] أباظة(فاروق عثمان)، دراسات في تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية1995، ص ص.15-34

قوسين في الزمن مرحلة تمثل توقف التقدم وتمثل الركود الثقافي وهذه المرحلة حددها بين التاريخ الكلاسيكي القديم وبدايات النهضة في العصور الأوربية الحديثة. وتم تعميم هذا المفهوم منذ القرن السابع عشر الميلادي. ويقوم المؤرخون غالبا بتقسيم العصور الوسطى نفسها إلى: العصور الوسطى العليا من القرن الخامس إلى العاشر الميلادي وعصر الانتصارات ويتوافق مع تطور نظام الإقطاع والعصور الوسطى الدنيا وهو زمن الكاتدرائيات والعصور المظلمة ونهاية العصور الوسطى[3]

غير أن هناك آراء أخرى بالنسبة إلى تحديد بدايات العصور الوسطى في أوربا فقد اعتقد بعض المؤرخين أن العصور الوسطى تبدأ بجلوس الامبراطور الروماني دقلديانوس على عرش الامبراطورية الرومانية في سنة 284م، ومن المعروف أن دقلديانوس كان ملكا من النوع الشرقي القديم مستبدا مطلقا ويضفي على شخصيته مظاهر الألوهية والتقديس واضطهد الديانة المسيحية والمسيحيين أكبر اضطهاد وهدم الكنائس وأحرق الأناجيل ونفى المسيحيين وعمل على استئصالهم من الإمبراطورية الرومانية وظهرت هذه النزعة بشكل واضح في مصر حتى اعتبر عهده أكبر عهد للاضطهاد في تاريخ مصر وأخذ أقباط مصر تاريخ توليه للسلطة بداية للتاريخ القبطي أو "تاريخ الشهداء" واعتبر بعض المؤرخين هذه السنة بداية العصور الوسطى.

كذلك اعتقد بعض المؤرخين أن سنة 323م التي تولى فيها الامبراطور قسطنطين الأول حكم الدولة الرومانية هي بداية العصور الوسطى إذ تم في عهده الاعتراف بالدين المسيحي دينا رسميا للدولة الرومانية بعد أن كان دينا للأقلية المضطهدة ونقل عاصمة الدولة الرومانية من روما إلى القسطنطينية التي أقامها على أنقاض مدينة بيزنطة على شاطئ البوسفور في شرق أوربا وكان ذلك تفريقا بين القسمين الشرقي والغربي للامبراطورية الرومانية وبداية لإنشاء الامبراطورية البيزنطية،وكانت

[3] Encyclopédie Encarta 2002-«Moyen Age »

مغادرته لمدينة روما إيذانا بتحويلها إلى مرتع خصب لسلطان البابوية الذي سينمو تدريجيا في العصور الوسطى ليصبح مسيطرا على مقدرات الحياة في أوربا طوال العصور الوسطى.

وهناك مؤرخون يعتبرون أن سنة 395م هي بداية العصور الوسطى باعتبارها السنة التي قسم فيها الامبراطور ثيودوسيوس الدولة الرومانية رسميا إلى شطرين منفصلين: الشطر الشرقي وعاصمته القسطنطينية والغربي وعاصمته روما بين إبنيه. وأخيرا فإن هناك من ينظر إلى سنة 410م على أنها البداية الفاصلة للعصور الوسطى وذلك نتيجة لقيام القوط الغربيين بقيادة ملكهم ألاريق بدخول شبه الجزيرة الإيطالية واحتلال روما القديمة، وإن كانت قد احتفظت بشبح الامبراطورية إلى سنة 467م حين أرسل صولجان الامبراطورية الغربية منها إلى الامبرطورية الشرقية وانتهت بذلك الامبراطورية الغربية في روما لتحل محلها سلطة الكنيسة.

أما بالنسبة لمنطقة الشرق الأدنى فقد شهدت ظهور الإسلام وبدأت دولته عقب هجرة الرسول(ص) من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة في منة 622م، وبدأت بذلك العصور الوسطى الإسلامية التي شهدت نهضة حضارية زاهرة في المناطق التي امتد إليها الإسلام حتى وصل إلى أوربا حيث مكث المسلمون في الأندلس ثمانية قرون متعاقبة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

وينبغي أن نشير إلى كون العصور الوسطى في أوربا لم تكن دامسة في ظلامها تماما إذ لم تخل من مدنية لها شخصيتها واتجاهاتها وطبيعتها الخاصة وإن كانت لا تعتبر بطبيعة الحال في مرتبة المدنية الرومانية التي سبقتها في العصور القديمة أو مرتبة المدنية في العصور الأوربية الحديثة؛ وذلك لاختلاف مظاهر الحياة في تلك العصور، ومن أبرز خصائص العصور الوسطى: ظاهرة العالمية الممثلة في خضوع أوربا لحكم

إمبراطوريتين كبرتين هما الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البيزنطية. أما الظاهرة الثانية فتمثلت في ظهور البابوية كسلطة دينية وهيبة مسيطرة بينما تمثلت الظاهرة الثالثة في ظهور نظام الإقطاع بجوانبه الإيجابية والسلبية. كما شكلت الحروب الصليبية الظاهرة الرابعة التي كان لها أبلغ الأثر في تغيير الأوضاع الأوربية نتيجة لتعرف الأوربيين على جوانب كثيرة من الحضارة العربية الإسلامية التي احتكوا بها ونبهتهم إلى واقعهم المتردي آنذاك.

ظهور المسيحية وانتشارها

تعد الامبراطورية الرومانية من بين اعظم الوحدات الحضارية والسياسية في العالم ، وقد بلغت عند نهاية القرن الاول ، ومطلع القرن الثاني الميلاديين اقصى اتساع لها ، فشملت معظم القارة الاوربية فضلا عن اعالي العراق وبلاد الشام ومصر والشمال الافريقي ، كما شملت البلقان واسيا الصغرى وامتد نفوذها بعيدا وراء حدودها السياسية حتى وصل الى بلاد فارس والهند الى بلاد النوبة والسودان في افريقيا فضلا عن شرقي الراين واعالي الدانوب في اوربا (1) .

هذه الامبراطورية المترامية الاطراف ضمت بين ثناياها شعوبا مختلفة المشارب والاجناس ، تلفها حياة فكرية متناقضة هي مزيج من الفلسفة اليونانية والديانات الوثنية ، فحين ولد السيد المسيح (عليه السلام) كان العالم الروماني يشعر بنوع من الجذب الروحي والعاطفي نحو الديانة المسيحية، اذ سئم الرومان عبادة الدولة وعبادة الاباطرة و لم يستطع عامة الناس فهم الفلسفة اليونانية ذات المنطق العقلي الجاف ، يضاف الى ذلك تحلل النظام الاجتماعي القائم على اسس طبقية (الاسياد والعبيد) مما جعل الناس يلتمسون في المسيحية التي تدعو الى البساطة وتطهير النفس مخرجا من الحياة التي يحبونها ، لذا فقد انتشرت المسيحية في الولايات التي تقع في حوض 4البحر المتوسط ، و لم يكد ينهي القرن الميلادي الاول الا وكانت كل ولاية رومانية تضم جالية مسيحية ، بل ان المسيحيين كونوا جالية كبيرة في روما نفسها في وقت مبكر مما عرضهم لاضطهاد الامبراطور الروماني نيرون (2) .

وعلى الرغم من ان معلوماتنا عن المسيحية في عصرها الاول وعن كيفية انتشارها بين ربوع الامبراطورية الرومانية تعد ضئيلة ، الا ان ما يتوفر من الروايات التاريخية تفيد ان القديس بولص(*) كان له الفضل الكبير في تشكيل التجمعات المسيحية الاولى ووضع قواعد اللاهوت وما له صلة بذلك في اطار فلسفة المسيحية التي تخص الاخلاق وموضوعات الحياة الاخرى والبعث والحساب كما انه ارسى دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالمية (1) .

وغني عن البيان القول ان معتنقي المسيحية قد لاقوا من السلطات الرومانية من الاضطهاد ما لايتسع المقام لشرحه هنا ، ومهما يكن من امر فقد استطاعت المسيحية ان تصمد امام كل هذه التحديات حتى اخذ الامبراطور قسطنطين(**) بسياسة الامر الواقع حين اصدر مرسوم ميلان(***) الشهير عام (313م) معترفا فيه باعتبار الديانة المسيحية كاحدى الديانات التي يسمح باعتناقها داخل الامبراطورية اسوة بالديانات الاخرى (2)

ان الدولة الرومانية العظيمة قد اقبلت ومنذ مطلع القرن الرابع على تطورات سياسة وادارية ودينية هامة سيكون لها الاثر الفعال في انفصام عرى الوحدة بين شطري العالم الروماني الغربي والشرقي ، وظهور ما يعرف بالدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) تمييزا لها عن الامبراطورية الرومانية القديمة التي سقطت عام (476م) على ايدي الجرمان البرابرة.

ففي ميدان التطورات السياسية والادارية ذهب المؤرخون مذاهب شتى في الاجابة على السؤال حول كيفية انقسام الامبراطورية الى شقين غربي وشرقي

(*) القديس بولص : وهو معلم المسيحية الاكبر فكان يهوديا لكن التعاليم المسيحية اصلحت مفاسد المجتمع اليهودي ووضع دعائما لكنسية

الكاثوليكية العالمية وفلسفة المسيحية المتعلقة بالاخلاق والموت والبعث والحساب (عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين Rostortzeff , M .op, cit , vol .2 , p.335 .

(**) قسطنطين : وهو امبراطور الامبراطورية الرومانية الذي استطاع ان يوحدها سنة 323م بعد انتصاره على خصومه بجانب المسيحية واقام بنقلة في التاريخ من العالم القديم الى عالم العصور الوسطى (عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص54-55) .

(***) مرسوم ميلان : اصدره قسطنطين سنة 313م فجعل من المسيحية ديانة مرخصة وساوى بينها وبين الاديان الاخرى داخل الامبراطورية الرومانية وتعهد بحماية ارواح المسيحيين وممتلكاتهم مثل بقية رعايا الامبراطورية (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص54-55) .

يوسف ،د. جوزيف نسيم ؛ تاريخ الدولة البيزنطية ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، الاسكندرية 1984،ص16 .

المصدر نفسه ، ص51 .

اليوسف ، د. عبد القادر احمد ، الإمبراطورية البيزنطية ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ،ص7 .

وقد لخص بعض المؤرخين ابرز ملامح بوادر انقسام العالم الروماني حيث يرجح البعض ان اصلاحات الامبراطور دقلديانوس(*) كانت البداية الحقة لذلك الانقسام ، اذ قسم العالم الروماني الى ادارتين اولاهما شرقية ومركزها اسيا الصغرى والاخرى غربية ومركزها ميلان في ايطاليا وذلك تلبيه لحاجات الامبراطورية الدفاعية والادارية(1) . الا انني ارجح اصلاحات دقلديانوس تمثل نهاية العصور القديمة وبداية العصور الوسطى .

لكن رنسيمان يرى ان سنة (330 م) بالذات هي البداية الحقيقية للتاريخ البيزنطي عندما استكمل قسطنطين تشييد مدينته (القسطنطينية

) التي اطلق عليها روما الجديدة(2) ، بعد ان اعتنق هذا الامبراطور الديانة المسيحية التي اصبحت الدين الرسمي للامبراطورية الرومانية وبخاصة في القسم الشرقي الذي اطلق عليه الدولة البيزنطينية او كما يسميه العرب المسلمون بدولة الروم (3) .

كما يحدد مؤرخون اخرون سنة (476م) كبداية لظهور الدولة البيزنطية ونهاية الامبراطورية الرومانية القديمة ، اذ تنازل في هذه السنة الامبراطور روملوس اوجستولوس اخر اباطرة الغرب عن العرش ، فاصبح الانفصال الظاهري بين شطري الامبراطورية حقيقة واقعة ، وفي هذه السنة ايضا ارسل الجنرال الجرماني ادواكر Odoacer (**) شارات الامبراطورية الرومانية الغربية الى الامبراطور(زينو Zeno)(***) .

---

(1) يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص15-16 ؛ اليوسف، الامبراطورية البيزنطية ، ص7 .

(*) دقلديانوس : وهو جندي فلاح من اقليم دالماشيا ، المطلة على البحر الادرياتي وعين امبراطور للامبراطورية الرومانية تنفيذ لرغبات الفيالق المتولي قيادتها فهو رجل نظامي اراد ضبط شؤون الحكم والادارة (فشر ،هـ.أ.ل ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، ج1، ترجمة مصطفى زياد ، السيد الباز العريني ، دار المعارف مصر ، القاهرة 1950،ص2) .

رنسيمان ، ستيفن ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مطبعة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1961، ص123 .

يوسف ، د.جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ،(الاسكندرية 1983)،ص38 .

(**) ادواكر : وهو احد الزعماء المتبربرين الذي استطاع ان يخلع

روميلوس اغسطلوس اخر اباطرة الغرب وان يتولى مكانة حكم ايطاليا وطلب من زينون ان يمنحه رتبة البطرقية وادارة شؤون ايطاليا فاستجاب زينو له واعترف به دواكر حاكما على ايطاليا

Vasilevce ,A: The Byzantine Empire .(madison –1952) ,vol.1.p.107

(***) هو امبراطور الامبراطورية الذي حكم الجزء الشرقي منها سنة 476م ،

. Vasiliev , op.cit, Vol.1 , p. 107 .

الجالس على عرش القسطنطينية ، فكان ذلك يمثل نهاية الامبراطورية الغربية من جهة واعلان قيام الامبراطورية الشرقية من جهة اخرى (1) .

وبذلك نلمس ان التطورات السياسية والادارية قد ادت الى تبلور وبروز بيزنطة كعاصمة شرقية للعالم المسيحي بعد افول نجم الامبراطورية الغربية .

موقف الاباطرة من الدين الجديد

ان حكومة الامبراطورية كانت تنظر الى المسيحية على انها من العناصر الهدامة بالنسبة للامبراطورية الرومانية وذلك لاجتماعاتها السرية يوم الاحد لمزاولة شعائرهم الدينية لان بداية المسيحية كانت بشكل ثورة (تنادي بالمبادئ) للقضاء على الحكم الروماني (2) . لذلك استخدم الاباطرة ضد المسيحيين عمليات الاضطهاد من اجل بقاء الامبراطورية ، وكانت سنة (284م) تمثل تاريخا مهما لكثرة المسيحيين الذين ماتوا من عمليات التعذيب في عهد الامبراطور دقلديانوس الذي عمل على اشعال النيران في الكتب المقدسة وسجن قساوستهم وفصلهم من الدوائر الحكومية وهدم كنائسهم (3) .

لكن بعد تنازل دقلـــديانوس عـــن العـــرش ســـنة 305م جـــاء مـــن بعـــده عـــدد من الابـــاطرة الـــذين اضـــطهدوا المســـيحية ، حـــتى جـــاء قســـطنطين الى عـــرش الامبراطوريـــة الرومانيـــة واســـتخدم سياســـة التســـامح الـــديني مـــع المســـيحية وذلـــك لمعرفتـــه الشخصـــية بســـرعة انتشـــارها وخوفـــه علـــى مســـتقبل الامبراطوريـــة الرومانيـــة (4) . اذ لم يظهـــر قســـطنطين مســـيحيته الا بعـــد فترة من الـــزمن ، حـــين اعلـــن ســـنة (313م) مرســـوم مـــيلان (الـــذي اجـــاز فيه رسميا اعتناق المسيحية)(5) .

يوســـف ، تـــاريخ الدولـــة البيزنطيـــة ، ص17 ، لقـــد تعـــرض الـــدكتور جوزيـــف الى عـــرض نظريـــات اخـــرى بهـــذا الخصـــوص ، ينظـــر كتابـــه ، ص17 وما بعدها

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، 50-51 .

عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص51-52

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص12-14 .

الصـــوري ،ولـــيم ، تـــاريخ الحـــروب الصـــليبية ، ج1، نقلـــه الى العربيـــة د. ســـهيل زكـــار ، دار الفكـــر للطباعـــة والنشـــر ، (دمشـــق 1990)،ص13؛ يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ،ص45 .

و لم يترك قســـطنطين دياناتـــه الوثنيـــة بـــل ظـــل بلاطـــه يضـــم الكهنـــة الـــوثنيين والقساوسة المســـيحيين وقـــد قســـم وظـــائف الدولـــة بينـــهم(1) . كمـــا كـــان حامياً للديانـــة المســـيحية حـــتى ســـنة (325م) ولكـــن بعـــد مـــدة مـــن الـــزمن تعرضت الكنيسة الى الانقسام (2) .

انقسام الكنيسة

وعلى صـــعيد الحيـــاة الدينيـــة نجـــد ان التيـــارات المذهبيـــة الجديـــدة قـــد ادت الى زيادة الهوة بـــين شـــطري العـــالم الرومـــاني ، حـــين افتـــرق اتبـــاع المســـيحية الى

فرقتين مختلفتين ، اذ كــان جــوهر الخــلاف حــول طبيعــة الســيد المســيح ، أي تحديد العلاقــة بــين المســيح الابــن والالــه الاب ، لقــد اختلــف اثنــان مــن رجــال الكنيســة في الاســكندرية وهمــا اريــوس (*) واثناســيوس(**) ، فقــال الأول بان المنطــق يحــتم وجــود الأب قبــل الابــن ، ومعــنى ذلــك ان المســيح الابن مخلــوق للإلــه الأب ، وبــذلك فهــو دونــه في المســتوى والقــدرة (3) . ((تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)) .

وقــال اثناســيوس بــان فكــرة الثــالوث المقــدس (***) ، تجعــل مــن الابــن مساويا للإله الاب ، اذ هما من اصل واحد بعينه (4) .

ويبدو أن الاثناسيوســيين قــد أدركــوا أهميــة مكانــة المســيح في قــوة الــدعوة وثباتهــا . ويــرى الاريوســيون أن مذهبــهم يقــوم علــى التوحيــد والفعــل والمنطق ، في حــين يتناســب المــذهب الاثناسيوســي مــع تفكــير عامــة النــاس من البسطاء الذين ينظرون إلى الحياة بعين العاطفة لا بعين العقل (5) .

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ص55 .

يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص46 .

(*) اريــوس : وهــو احــد قساوســة مصــر وراعــي كنيســة بوكــالبس بالاســكندرية(Visliev ,op.citvol .Vol .1, p.55) (**)اثناســيوس : وهو اســقف الاســكندرية (العــريني ، الســيد البــاز ، الدولــة البيزنطيــة ، دار النهضة العربية ، (القاهرة 1965) ، ص35 .

Cam.Med.Hist.Vol.1.P.199 .

(***) الثــالثوث المقــدس : هــي عقيــدة المســيح المتمثلــة بطبيعــة وشخصــية السيد المســيح الالهيــة ،د.عبــد الامــير محمــد امــين ، محمــد توفيــق حســين ، تــاريخ اوربــا في العصــور الوســطى ، مطبعــة (جامعــة بغــداد ،1980) ،ص41 .

توفيــق ، عمــر كمــال ، تــاريخ الدولــة البيزنطيــة ، مطبعــة الــوادي ، (الاسكندرية ،1977)،ص60 .

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ص56-57 .

وبناء على الفوارق الحضـــارية بـــين الشـــرق اليونـــاني ، والغـــرب اللاتـــيني فقـــد سادت الاريوســـية في الشـــرق بينمـــا ســـادت الاثناسيوســـية في الغـــرب اللاتـــيني ، وبـــذلك انقســـم العـــالم الرومـــاني الى معســـكرين تســـودهما البغضـــاء الدينيـــة والسياسية (1) .

وبمـــرور الوقـــت حاولـــت كنيســـة رومـــا ان تتفـــوق علـــى بـــاقي الكنـــائس المســـيحية ، بعـــد ان خـــلا لهـــا الجـــو باســـتقرار الابـــاطرة في القســـطنطينية الجديدة ، عاصـــمة العـــالم الرومـــاني الشـــرقي ، اذ حلـــت محـــل رومـــا في ذلـــك المركـــز الممتـــاز ، وبـــذلك ورث اســـقف رومـــا الابـــاطرة الأقـــدمين ســـلطانهم ونفـــوذهم ، وبـــات يطمـــع في زعامـــة الغـــرب دينيـــا ودنيويـــا ، محـــاولا قـــدر الامكان الانفصـــال والاســـتقلال عـــن الكنيســـة الشـــرقية ، الـــتي كانـــت هـــي الاخرى تـــرى احقيـــة وجودهـــا في القســـطنطينية عاصـــمة الابـــاطرة الشـــرقيين كراعيـــة لبقيـــة الكنـــائس المســـيحية ، كمـــا رات الكنيســـة البيزنطيـــة ان في توجهات كنيســـة رومـــا اللاتينيـــة نزعـــة انفصـــالية واضـــحة وخطـــيرة ، فكـــان ذلك البدايـــة الحقيقيـــة للخـــلاف والشـــقاق المـــذهبي بـــين الكنيســـتين الشـــرقية والغربية الذي اســـتمر طيلـــة العصـــور الوســـطى ، وتـــرك اثـــارة علـــى العلاقـــة بـــين الاغريـــق واللاتـــين ، اللـــذين تقـــابلا وجهـــا لوجـــه في الحملـــة الصـــليبية الاولى (2) .

وفي عـــام (1024م) تـــأزم الوضـــع مجـــددا عنـــدما اقتـــرح بطريـــرك القســـطنطينية اســـتمرار العلاقـــات مـــع رومـــا مقابـــل اعتـــراف رومـــا بزعامـــة القسطنطينية لجميـــع كنـــائس الشـــرق لكـــن الاخـــيرة لم تقبـــل بهـــذا العـــرض ، و لم تؤثر على مكانة كنيسة القسطنطينية وزعامتها لكنائس الشرق(3) .

وكان استيلاء النورمان علـــى جنـــوب ايطاليـــا قـــد اثـــار مشـــكلة جديـــدة فقـــد تحـــالف الامبراطـــور البيزنطـــي قســـطنطين التاســـع مونوماكـــوس(*) مـــع البـــابويـــة

رستم ،د. اسد ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ط1،ج1، دار المكشوف ، بيروت ، (لبنان 1955) ،ص56

يوسف ، العرب والروم واللاتين ،ص114 .

العريني ، السيد الباز ؛ الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1، مطبعة التاليف والترجمة والنشر ، (القاهرة 1960)، ص72-73 .

(*) قسطنطين التاسع مونوماكس : وهو امبراطور بيزنطي وصل الحكم سنة 1042-1055م عند زواجه من زوى سليلة البيت المقدوني (يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ،ص19) .

ولكي يحقق امبراطور بيزنطة هذا التحالف عين ارجيروس بن ميلو(*) حاكما على ممتلكاته في ايطاليا لمنع تقدم النورمان(1) .

وقد انزعج كربولاريوس(**) عندما عين ارجيروس حاكما في ايطاليا على املاك بيزنطة لانه وجد ان التحالف مع البابويه يهدد مصالحه وحاول ان يمنع هذا التحالف عندما اصدر تصريحا الى الاسقف انكر فيه تقاليد الكنيسة اللاتينية وهي تناول الخبز الغير مختمر في القربان ، واغلق الكنائس اللاتينية في القسطنطينية سنة (1053م) وكتب كريولاريوس رسالة وفاق الى البابا حيث رد فيها البابا بانه لا يتنازل عن خضوع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما(2) . وقد امتنع كريولاريوس ان يدخل في المفاوضة مع البابا فاصدر البابا بحقه قرار الحرمان من الكنيسة في سنة (1054م) بحضور رجال الدين (3) .

وهذا ادى الى توتر العلاقات السياسية والدينية بينهما وفي شهر ايار سنة (1054م) انفصلت الكنيستان الشرقية والغربية وقد بذلت محاولات عديدة لتوحيد الكنيستين لكنها باءت بالفشل لذلك اصرت كل منهما ان يكون لها الاسبقية على الاخرى وان يسود كل منهما وجهة نظرها وان يكون لكل منهما السيادة الروحية على المشرق والمغرب (4) .

ان هـــذا الانشـــقاق ادى الى فصـــل الكنيســـة الشـــرقية عـــن البابويـــة في رومـــا وهـــذا ادى الى كـــره واحتقـــار الكاثوليـــك للارثـــوذكس كمـــا انهـــم يغـــارون مـــن البيـــزنطيين وذلـــك بســـبب مدنيتـــهم وحضـــارتهم ولا يثقـــون بهـــم ولا يطمئنـــون الـــيهم، واصـــبحوا هـــم في نظـــر البيـــزنطيين هراطقـــة ملحـــدين ولا يدينون لهم باي تسامح (5).

(*) ارجيروس بن ميلو : وهـــو مـــن اســـرة لومبارديـــة تعتنـــق الديانـــة والتقاليـــد اللاتينية و لم يكن من الرعايـــا المخلصـــين لبيزنطـــة لكـــن قســـوة النورمـــان حملتـــه ان يتخـــذ جانـــب مـــن بيزنطـــة (العـــريني ، الشـــرق الاوســـط والحـــروب الصليبية ،ج1،ص73) .

(1) العريني ، الدولة البيزنطية ، ص814-815 .

(**) كريولاريـــوس : وهـــو ميخائيـــل كريولاريـــوس بطريـــك الكنيســـة البيزنطيـــة (رنســـيمان ، ســـتيفن ، تـــاريخ الحـــروب البيزنطيـــة ،ج1، نقلـــه الى العربية السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت -لبنان ،1968،ص)

عبيـــد ، اســـحاق تاوضـــروس ، رومـــه وبيزنطـــة ، مطـــابع دار المعـــارف ، (مصر ، 1970) ،ص25 .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص91 .

يوسف ، العرب والروم واللاتين،117-118 .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص175 .

وقد غضب الامبراطور مـــن واضـــعي قـــرار الحرمـــان واحـــرق النســـخ المتداولـــة كما ثار اهـــالي القســـطنطينية ضـــد قـــرار الحرمـــان (1) . وكـــان هـــذا القـــرار بدايـــة الفتنـــة بـــين الكنيســـتين الارثودوكســـية في الشـــرق والكاثوليكيـــة في الغـــرب وقـــد حـــدثت هـــذه الفتنـــة نتيجـــة للفـــروق الاقتصـــادية والسياســـية والثقافيـــة بـــين الكنيســـتيين فمنـــذ التبشـــير بالمســـيحية كـــان المجتمـــع اليونـــاني وحدة سياســـية وثقافيـــة رغـــم انـــه يتكـــون مـــن شـــعوب مختلفـــة لهـــا لغاتهـــا

وثقافتها الخاصة لكن هناك ثقافة عامة توحد هذه الشعوب هي الثقافة الرومانية واليونانية وتخضع لحكم امبراطوري واحد(2) .

لكن وحدة الامبراطورية الرومانية لم تستمر فقد انقسمت الى امبراطورية غربية وامبراطورية شرقية وتعرضت الاولى الى هجمات الجرمان ما عدا الاجزاء الايطالية (3) . فالاختلافات الثقافية لم تظهر الا بعد الانفصال السياسي بين القسمين فكانت صعوبة التفاهم بين اللغة اللاتينية في الغرب وبين اللغة اليونانية في الشرق فالاختلافات الثقافية والسياسية ادت الى اختلافات دينية وتوجهت الكنيسة الشرقية نحو الازدهار الثقافي على عكس الكنيسة الغربية التي اصبحت الامية متفشية فيها وهذا ادى الى اختلاف بين العقليتين فالعقلية البيزنطية عقلية تاملية بينما العقلية اللاتينية عقلية واقعية (4) .

وقد ازداد الخلاف بين الكنيستين عند ادخال تغيير في العقيدة القديمة التي بدات بروح القدس من الاب فاضافت الكنيسة اللاتينية الى النص " ان روح القدس من الابن " (5) . اضافة الى الانحرافات التي استخدمتها الكنيسة اللاتينية وهو استعمال الخبز الغير مختمر في التناول واكل البيض واللبن في ايام الجمعة وحلق اللحى واكل اللحوم في ايام الاربعاء وزواج اخين من اختين والصيام أيام السبت

عبيد ، روما وبيزنطة ،ص34 .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص128-129 .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص69 .

د.عبد الامير محمد امين ومحمد توفيق حسين ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ،ص91 .

عبد القادر ، حامد ، الاسلام ظهوره وانتشاره في العالم ،ط2، مكتبة نهضة مصر ، (القاهرة 1964) ،ص44 .

ومشاركة القساوسة في اعمال الحرب والتعميد بغطسة واحدة بدلا من ثلاث فكانت انحرافات هذه الكنيسة تعد افساداً بالنسبة للكنيسة الارثوذوكسية التي لا تقبل شركة التناول من قسيسين متزوجين ولا تحلق اللحى ولا تقبل انبثاق روح القدس من الابن (1) .

وقد اشتد النزاع بين المذهبين و لم يستطع الامبراطور قسطنطين ان يحل الخلافات بينهما(2). لذلك عقد مجمعا دينيا يدعى بالمجامع المسكونية (*) ويجتمع بدعوة من الامبراطور وتعترف الكنيسة الكاثوليكية بعشرين مجلسا اما الكنيسة الارثوذوكسية فتعقد بسبعة مجالس وقد بحثت في مجالسها(**) الثلاثة موضوع النزاع بين الاريوسية والاثناسيوسية واعلن المجمع بطلان مذهب اريوس وعمل الامبراطور على نفيه(3). و لم ينجح مجمع نيقيه في حل مشكلة الاريوسية وقد استمرت بالانتشار في اسيا والشام وبين قبائل القوط الجرمانية وقد ناصر الامبراطور قسطنطين في سنواته الاخيرة الاريوسيين لانه نقل عاصمته الى القسطنطينية مما ادى الى ارضاء اهالي الامبراطورية الشرقية وقد افرج عن اريوس واتباعه(4) .

وفي سنة (334م) عقد الامبراطور المجمع الديني الثاني في مدينة صور وتم عزل اثناسيوس والغيت قرارات مجمع نيقيه(5) . وفي سنة (336م) توفي اريوس ثم توفي قسطنطين سنة (337م) وعقد مجمع القسطنطينية (381م) في عهد الامبراطور ثيودوسيوس(***) وذلك بسبب الخلاف بين العقيدتين وقد اعلن المجمع بان مذهب الدولة هو الاثناسيوس وعدم شرعية الاريوسية ومعاقبة اتباعها(6) .

عبيد ، رومة وبيزنطة ،ص34-36 .

عاشور ، اوربا في العصور الوسطى ، ص56-57 .

(*) المجاميع المسكونية : وهو مجمع ديني كبير وعالمي وتشترك فيه جميع الكنائس المسيحية وبدعوة من الامبراطور يعتقد المسيحيون ان قرارات هذه المجالس يوحي بها من الرب وان طاعة هذه القرارات واجبة واساس أي جانب اطاعة الكتاب المقدس (توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص60) .

(**) المجالس الثلاثة الاولى هي القسطنطينية وصور ونيقية (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص58) .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص60-61 .

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص58 .

العريني ، الدولة البيزنطية ،ص32 .

(***) ثيودوسيوس: وهو امبراطور الجزء الشرقي للامبراطورية الرومانية الذي تولى الحكم سنة 394 (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص63) .

(6) توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص61-62 .

وفي سنة (428م) ظهر المذهب الانطاكي(*) واصبح ينسب الى نسطوريوس(**) Nestorius عندما عين بطريكا للقسطنطينية وقد تظاهر سكان القسطنطينية ضد نسطوريوس (1) وقامت هذه المعارضة من قبل كيرلس(***) cyrlls الذي استطاع ان يتغلب عليه بفضل مساعدة الرهبان المصريين ورجال الدين له وصار زعيما للكنيسة الشرقية وقد ادينت النسطورية سنة (431م) عندما عقد الامبراطور المجمع المسكوني في مدينة افسوس Ephesus (****)(2) .

وفي سنة (449م) عقد الامبراطور مجمعا في مدينة افسوس وتراسه خليفة كيرلس وتلميذه واطلق عليه مجمع اللصوص (*****) عندما ارتبطت كنيسة الاسكندرية بالمونوفيري(******) على الرغم من انها تؤمن بان للمسيح طبيعة واحدة(3) . وفي سنة (451م) عقد المجمع

المسكوني الرابع في مدينـــة خلقدونيـــة لعـــدم حـــل مشـــكلة العقيـــدة في مجمعـــي افسوس وقد عقـــده الامبراطـــور مارقيـــان(*******) وصـــدر عـــن هـــذا المجمـــع قـــانون الايمـــان وهـــو الاعتـــراف بطبيعـــتين في المســـيح ولا يمكـــن تجزئتـــهما وبـــذلك ربحـــت كنيســـة القســـطنطينية في تكـــوين العقيـــدة الـــتي تريـــدها وصارت لكنيسة روما الصدارة(4) .

وقـــد وقـــع تنـــافس بـــين الكنيســـتين الغربيـــة والشـــرقية وذلـــك لانتشـــار المونوفيزية .

(*) المذهب الانطاكي : وهو الـــذي يعتقـــد بـــان المســـيح واحـــد ولـــيس اثـــنين ولهذا تميـــز بـــين اللاهـــوت والناســـوت في شـــخص المســـيح الواحـــد (رســـتم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ج1،ص152) .

(**) نســـطوريوس Nestorius : وهـــو مـــن اتبـــاع مدرســـة انطاكيـــة اللاهوتيـــة ،(هســـي ،ج.م، العـــالم البيزنطـــي ،ط2،ترجمـــة ،د.رافـــت عبـــد الحميد ، دار المعارف ، القاهرة 1982،ص156.

vasiliev ,op,Cit . Vol .1 ,P.98 .

(***) كيرلـــس Cyrll: وهـــو بطريـــك الاســـكندرية الـــذي كـــان يفـــوق نســـطوريوس في المجـــال السياســـي والـــديني(توفيـــق ، تـــاريخ الدولـــة البيزنطيـــة ،ص63) .

(****) افســـوس : عاصـــمة اســـيا الصـــغرى (الصـــوري ، تـــاريخ الحـــروب الصليبية ،ج2،ص767) .

(2) رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ج1،ص123-124 ،

Ostrogorosky , G.History of The Byzanrin state trans joan Hussey . (oxford , 1956) ,p.54 .

(*****) مجمع اللصـــوص : الـــذي اقـــر مـــذهب يوتيجـــا والمـــذهب المونـــوفيزي (توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ،ص64)

(******) المونـــوفيزي : وهـــي ميـــول سياســـية انفعاليـــة اتخـــذها المســـيحيون ضد الحكم البيزنطي ؛

. (Vasiliev .op.cit,op,105)

.Vasiliev ,op,cit,p.99 (3)

(*******) مارقيـــان : وهـــو الامبراطـــور الـــذي خلفـــه ثيودوســـيوس الثـــاني في الحكم (هسي ، العالم البيزنطي ، ص106) .

.(4) Ostrogorosky , G., op,cit,p.55

اضـــافة الى الخـــلاف بـــين كنـــائس الولايـــات الواقعـــة في الجـــزء الشـــرقي مـــن بيزنطة ، حول المونوفيزية مما ازعج الحكومات البيزنطية (1).

وقـــد حـــاول الامبراطـــور زينـــون ســـنة (482م) التوفيـــق بـــين المـــذهب الخلقدوني والمذهب المونوفيزي باســـم قـــانون الاتحـــاد مـــع عـــدم ذكـــر الطبيعـــة او الطبيعتين للسيد المسيح وعـــدم ذكـــر اتحـــاد الطبيعـــتين الـــذي ذكـــر في مجمـــع خلقدونة لكن هذا الاتحـــاد لم يـــنجح فلـــم يعتـــرف بـــه البابـــا كمـــا انـــه قـــام بمقاطعة بطريك كنيســـة القســـطنطينية وقـــد اســـقط البطريـــك اســـم البابـــا مـــن ادعية وصلوات الكنيســـة ممـــا ادى الى الشـــقاق لمـــدة ثـــلاث ســـنوات او اكثـــر بين كنيستي القسطنطينية وروما (2) .

وعنـــدما تـــولى العـــرش انستاســـيوس(*) الاول ســـنة (491-518) تمســـك بالارثوذكســـية (قـــانون الاتحـــاد) واتبـــع جانـــب المونـــوفيزتيين وقـــد حظيـــت سياسته باســـتياء وكـــره مـــن قبـــل البيـــزنطيين وقامـــت ثـــورات واضـــطرابات داخلية وقـــد زاد الظلـــم والتـــذمر مـــن قبـــل المـــوظفين كمـــا لقيـــت سياســـته ترحيبـــا مـــن قبـــل الســـوريين والمصـــريين وان اتباعـــه سياســـة المونوفيزتيـــة ادى الى اصطناع حـــزب لارضـــاء اصـــحاب الحـــرف وهـــذا ادى الى تـــذمر الشـــعب . (3)

سقوط الامبراطورية الغربية

لقــد ادت الاضــطرابات والهجمــات الــتي قامــت بهــا العناصــر الجرمانيــة في الامبراطوريــة الغربيــة الى اضــعاف ســلطتها وانتقالهــا الى بعــض العناصــر المتبربرة مــن قــادة الجــيش الجرمــاني ممــا ادى الى تمزيــق اجزائهــا وســقوطها سنة (476م)(4) .

Vasiliev ,op,cit. Vol .1 ,p.105 .

Ostrogororski ,op,cit,p.59 .

(*) انستاســيوس الاول : اشــتهر بكفاءتــه الاداريــة واصــلاحاته الماليــة ومــن المشــاكل الــتي واجهتــه مشــكلة الايــزوريين (Vasilier ,op,cit. Vol. 1 ,p.109) .

Ostrogororski , op.cit,P.P. 61-62 .

(4) عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص119 .

وقامــت العناصــر الجرمانيــة بنــهب النفــائس الموجــودة في البيــوت والقصــر الامبراطــوري والكنــائس والمعابــد وبــذلك خســرت الامبراطوريــة اراضيها(1).

وخضــع الجــزء الغــربي اسميــا لســيادة الاباــطرة البيــزنطيين الــذين ســبق وان نقلوا عاصــمتهم مــن رومــا الى القســطنطينية وظهــروا بمظهــر الغــنى والابهــة امام الشعوب المتبربرة(2) .

اضــافة لمــا اظهــروه اباــطرة الامبراطوريــة البيزنطيــة مــن مهــارة دبلوماســية وسياسية وعسكرية تجاه العناصــر الجرمانيــة وهــذا مــا جعلــهم يغضــون النظــر عن الامبراطورية الشرقية مما كان له اثر في بقائها(3).

اهم مشاكل الامبراطورية الشرقية

ان القسم الشرقي مــن الامبراطوريــة البيزنطيــة ظــل محافظــا علــى قوتــه علــى الرغم مما واجهته من مشــاكلات خطــيرة وذلــك لمــا اتســم بــه الاباــطرة مــن

مهـــارة سياســـية وعســـكرية اذ حـــافظوا علـــى دفاعـــاهتم العســـكرية والبحريـــة ،فضـــلا عـــن اصـــلاحاهتم الداخليـــة ومنـــها تســـوير الامبراطوريـــة البيزنطيـــة(4) .ومع ذلك فـــيمكن ان نقـــف عنـــد اهـــم الجهـــات الـــتي اســـهمت في اضـــعاف وتدهور الامبراطورية البيزنطية ومنها :-

أ- الفرس :-

فقـــد واجهـــت الامبراطوريـــة البيزنطيـــة هجمـــات الفـــرس وكـــان مـــن بـــين المشاكل بينهما هـــو الخـــلاف علـــى الممـــرات الخزريـــة (*) المهمـــة لاســـتراتيجية الدولتين والتي كانت تحـــت ســـيطرة الفـــرس وقـــد اشـــترط ملـــك الفـــرس علـــى الامبراطـــور البيزنطـــي لغـــــــرض المصـــالحة ان يدفـــــع مبلغـــــا مـــــن المـــــال وان يخـــــــرب قلاعهم

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ص93 .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ،ص20 .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ،ص50 .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص50 .

(*) الممـــرات الخزريـــة : تقـــع وراء حـــدود ليبريـــا (جورجيـــا) وهـــي مـــن المراكـــز الاســـتراتيجية للـــدولتين (اليوســـف ، الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ، ص61) .

في دور ازو(*) وهي احـــدى الممـــرات المهمـــة لحمايـــة الممـــرات بـــين الطـــرفين فلم يوافق الامبراطور على تلك الشروط (1) .

واستمر القتـــال بينـــهما و لم يتوقـــف الا بعـــد وفـــاة ملـــك الفـــرس ومجـــئ ابنـــه فجـــرت مفاوضـــات للصـــلح بينـــهما علـــى اســـاس ان يـــدفع الامبراطـــور الجزية مقابل السلم بينهما وارجاع الحدود الى ما كانت عليه (2) .

ويبدو انهما لم يتفقـا فاحتـل الفـرس انطاكيـة بعـد ان جـددوا الهجـوم علـى الامبراطورية سنة (540م) ودخلـوا بـلاد الشـام وقـد اخـذوا اهلـها اسـرى الى عاصـمة الفـرس كمـا مارسـوا فيهـا عمليـات القتـل والحـرق والسـلب والنـهب لكـن الجيـوش البيزنطيـة حققـت النصـر علـى الفـرس بعـد ان تجمعـت في بـلاد الرافـدين (3) . هـذا اضـافة الى الامـارات الصـقلبية (**) الصغيرة فهي تقف الى جانب اعداء بيزنطة محاولة تثبيت كياناتها (4) .

ب- ظهور الاسلام

تعد معركة مؤتـة سـنة (8هـــ-629م) اول صـدام مسـلح بـين المسـلمين والروم البيزنطنيين ، وعلـى الـرغم مـن عـدم التكـافؤ بـين قـوات الطـرفين ، الا انها كانت تمثـل الاشـارة الواضـحة والـدعوة الى تحريـر بـلاد الشـام مـن سيطرة البيزنطيين (5) .

وما غزوة تبـوك الـتي قادهـا الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) في رجـب سنة (9هـ) الا تأكيد على امر تحريـر الشـام مـن يـد الـروم ونشـر الاسـلام بين ربوعها(6).

(*) دور ازو : وهـي مدينـة بلغاريـة خـلال حكـم القيصـر ميخائيـل سـنة (1054) وقـد حطمهـا الامبراطـور البيزنطـي باسـيل الثـاني سـنة 1081م (الشـارتري ، فوشـيه ، تـاريخ الحملـة الى القـدس ،ط1،ترجمـة زيـاد جميـل العلـي ، المركـز العـربي لتوزيـع المطبوعـات ، بـيروت –لبنـان 1990،ص89) .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص61-62 .

يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص82 .

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص118 .

(**) الامارات الصقلبية : تقع الى شمال الغربي من الامبراطورية البيزنطية والتي كانت مستقلة مثل زيتا Zeta وكرواتيا Croatia فان تغير الاوضاع عند الادرباتي وما وراء يؤدي الى تحدي هذه الامارات للسيادة البيزنطية . (هسي ، العالم البيزنطي ، ص172-173) .

هسي ، العالم البيزنطي ، ص172 .

ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك (ت218هـ) ، السيرة النبوية ، ج4،تحقيق مصطفى السقا واخرين دار احياء التراث العربي ، (بيروت 2000) ،ص20-25 .

الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد (ت207هـ) ، كتاب المغازي ،ط3،ج2 ، تحقيق د. مارسدن جونسن ،عالم الكتب ، بيروت 1984، ص755-756 ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ،ج4،ص169-179 ؛ ابن خياط ، خليفة (ت:240هـ) ؛ تاريخ خليفة بن خياط ،ج1، تحقيق اكرم ضياء العمري ، مطبعة الاداب ، (العراق - النجف 1967) ،ص49 ؛ المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسن (ت346هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ،ط1، ج1، دار الاندلس ، (بيروت 1393هـ-1973م) ،ص281 .

وفي العصر الراشدي واصل ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) تنفيذ سياسة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتوجيه انظار المسلمين نحو بلاد الشام بارساله خالد بن سعيد بن العاص على راس جيش الى تيماء(*) قرب حدود الشام ليكون درعا لمن وراءه من المسلمين في حالة تعرض الروم او حلفائهم لهم في اثناء حروب الردة (1) .

ثم واصل ابو بكر (رضي الله عنه) ارسال الجيوش الى بلاد الشام من اجل تحريرها الامر الذي دعا الروم الى حشد قواهم لمواجهة المسلمين ،

فحدثت معركة اجنادين سنة13هـ/ 634م التي انتصر فيها المسلمون (2) . هذا الانتصار دعى البيزنطيين الى المبادرة بحشد الكثير من القوات لمواجهة المسلمين والتقى الطرفان في وادي اليرموك ، حيث جرت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون على القوات البيزنطية سنة (15هـ / 636م)(3) .

اما المواجهة البحرية بين الطرفين فقد كانت بين الاسطولين العربي والبيزنطي سنة (34هـ/ 654م) في معركة ذات الصواري ، والتي انتهت بانتصار المسلمين على الاسطول البيزنطي (4) .

وكانت المواجهة مع البيزنطيين في العصر الاموي موزعة على جبهتين الاولى الثغور الشامية والثانية الثغور الجزرية (5) .

وشهد العصر الاموي ، كذلك ، عدة محاولات لفتح القسطنطينية ، ففي سنة (48هـ/668م) قاد فضالة بن عبيد الانصاري جيشا كبيرا مخترقا به اسيا

(*) تيماء : بليدة في اطراف الشام بين الشام ووداي القرى على طريق حاج الشام ودمشق (الحموي ، ياقوت ، شهاب الدين ابي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي ، ت626هـ)م1،ج2، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان 1996،ص471 .

(1) الطبري ، محمد بن جرير ، (ت310هـ) ، تاريخ الرسل والملوك،ج1 ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة 1960 ، ص ؛ ابو الفداء ، الحافظ ابن كثير الدمشقي ، (ت 774هـ) ، البداية والنهاية ، ط، ج1، مكتبة المعارف بيروت ، ، ص ؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، (ت808هـ) ، كتاب العبر ،ج2، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان 1979، ص82 .

(2) البلاذري ، ابـو العبـاس احمـد بـن يحيى بـن جـابر ، فتـوح البلـدان ، حققـه وشـرحه عبـد الله انـيس الطبـاع و عمـر انـيس الطبـاع ، مؤسسـة المعـارف ، (بـيروت 1407هـ/1987م) ،ص156 ؛ ابـن اعـثم ، ابـن محمـد احمـد (ت314) ؛ كتـاب الفتـوح ،ط1،ج1،دائـرة المعـارف العثمانية ، حيدر اباد (ب.د) ،ص145-150 .

(3) البلاذري ، فتوح البلدان ،ص184 .

(4) اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ،ص97 .

(5) ينظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص223-وما بعدها

الصغرى حتى بلـغ القسـطنطينية ، لكـن تعـذر عليـه فتحهـا لمناعـة حصـونها الامر الذي دفع الخليفـة معاويـة الى ارسـال حملـة جديـدة بقيـادة ابنـه يزيـد لفتح القسطنطينية الذي عاد عنها بعد ان حاصرها (1) .

وكانـت اخـر محـاولات الامـويين للاسـتيلاء علـى القسـطنطينية في خلافـة سليمان ابن عبـد الملـك سـنة (98هـ/716م) حيـث اعـد جيشـا لـذلك الامر ، واسـند قيادتـه الى مسـلمة بـن عبـد الملـك ، الـذي حاصـرها بـرا وبحـرا ولكـن هنـاك عـدة عوامـل حالـت دون اسـتيلائه عليهـا ، فسـحب قواته بامر من الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة (99هـ/717م) (2) .

وبسـبب انشـغال العباسـيين في توطيـد حكمهـم ، اخـذت الدولـة البيزنطيـة تسـتغل الظـروف لصـالحها لتـهاجم الحصـون والثغـور الاسـلامية ، ولهـذا اولى الخلفاء العباسيون هـذه الثغـور أهميـة كـبيرة ، فقـد حسـن الخليفـة ابـو جعفر المنصور هذه الثغـور واعـاد بنائهـا وجعـل لهـا حاكمـا إداريـا مسـتقلا وحشد فيها آلاف المقاتلين (3) .

وقد أرسل الخليفـة المهـدي حملـة عسـكرية بقيـادة الحسـن بـن قحطبـة بـن شـبيب فتوغـل في بـلاد الـروم ودمـر الكـثير مـن المـدن سـنة (162هـ/778م)(4) .

ثم تواصلت حملات العباسيين ضد البيزنطينين في عهد هارون الرشيد الذي قاد البعض منها بنفسه (5) ، وكذلك قاد الخليفة المعتصم بالله حملة ضد البيزنطينين للرد على اعتداءاتهم على المسلمين ، فدخل مدينة عمورية وخربها(6) .

الطبري ، تاريخ الطبري ، ج5،ص232 .
الطبري ، تاريخ الطبري ،ج6،ص553 .
البلاذري ، فتوح البلدان ، ص227 .
المصدر نفسه ، ص231 .
الطبري ، تاريخ الطبري ، ص152 .
ابن خياطة ، تاريخ ابن خياط ،ج2،ص787؛ اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب (ت:292هـ) تاريخ اليعقوبي ،ج3،تحقيق محمد صادق ،بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية (النجف 1973م) ،ص215 .

واستمرت العلاقات الحربية بين الدولتين حيث كانت الدولة البيزنطية تتحين الفرص للإغارة على الأراضي الإسلامية ، فيقوم المسلمون بالرد على ذلك ، وفي منتصف القرن الخامس الهجري هيمنت على المشرق الإسلامي قوة جديدة ، هم السلاجقة(*) الذين سرعان ما مدوا نفوذهم إلى أسيا الصغرى وبداوا بالتوسع في البلاد الواقعة بين بحيرة وان وارومية واستولوا على جورجيا وبلاد الأرمن فاثار ذلك مخاوف البيزنطينين ، فهاجم الإمبراطور البيزنطي رومانوس الاطراف الشمالية لبلاد الشام ، الأمر الذي دفع ألب ارسلان(**) الى السيطرة على بلاد الشام(1).

وقد حقق الب ارسلان انتصارا كبيرا على البيزنطينين في موقعة ملاذكرد(***) في عام (463هـ/ 1071م) وسحق السلاجقة معظم الجيش البيزنطي ، ووقع الإمبراطور رومانوس في الاسر (2) .

ج- البلغار والافار والقوط والنورمان

ووقفت الإمبراطورية ضد أعدائها من البلغار(****) والافار والقوط(*****) الذين هاجموها فكانت أحيانا تنتصر و أحيانا تهزم لكنها بقيت متمسكة بحقوقها القديمة كما تعرضت الإمبراطورية الشرقية إلى غزوات المغامرين النورمان (******)

(*) السلاجقة : مجموعة من القبائل التركية التي تسكن في تركستان اشتق اسمها من زعيمها سلجوق بن دقاق اعتنقوا الاسلام في القرن العاشر الميلادي وتحمسوا للمذهب السني وزادت قوتهم في القرن الحادي عشر واستولوا على المناطق المجاورة وسيطروا على خراسان وفي سنة 1037م اعلن قيام دولة السلاجقة وبعد ثلاث سنوات حصل على الاعتراف بدولتهم من الخلافة العباسية(حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ،ص21-24-25) .

(**) الب ارسلان : وهو السلطان السلجوقي الذي خرج على طاعة سليمان جغري بعد وفاة عمه طغري واعلن نفسه سلطانا للسلاجقة واقره امراء البيت السلجوقي على ذلك (حلمي ، د. احمد ، كمال الدين ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ، مطبعة الحيدرية ،بيروت 1975،ص72) .

ابن القلانسي : ابي يعلي حمزة ، ذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت 1908، ص

(***) موقعة ملاذكرد:انتصر فيها الب ارسلان على الامبراطور البيزنطي رومانوس دي جين وقضى على القوات البيزنطية في اسيا الصغرى (ابن الاثير ، عز الدين بن ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، الكامل في التاريخ ،ج10،دار صادر للطباعة والنشر ، (بيروت /1966) ، ص23 .

ابن العبري : غريفوريوس ابي الفرج بن اهرون الطيب الملطي ، تاريخ مختصر الدول ، دار الرائد اللبناني ، بيروت 1983، ص323 .

(****)البلغار : هم من الصقالبة استطاع الامبراطور البيزنطي باسيل الاول القضاء على سلطتهم وضمهم الى املاك بيزنطية بعد ان توسعت الامبراطورية البيزنطية الى ممر الادرياني (العريني ،الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1،ص46) .

(*****) الافار والقوط : وهم من القبائل الجرمانية التي انحدرت من شبه جزيرة اسكندناوة الى السهل الاوربي ، وانقسموا الى شرقيين وغربيين ، اذ انتشر الشرقيون فوق سهل روسيا واتجه الغربيون نحو البلقان ، ينظر :(عاشور ؛ اوربا العصور الوسطى ،ص83-84)

(******) النورمان : هم من الجند المغامرين الذين بدء ظهورهم في جنوب ايطاليا ودخلوا في خدمة الامراء اللومبارديين وجاء هولاء من نورماند بالعدم توفر سبل الحياة لهم (العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1،ص50)

بقيادة روبرت جويسكارد(*) الذي هاجم البلقان واحتل جنوب ايطاليا واخذ صقلية من المسلمين وجعلها دولة مسيحية وعين عليها اخاه نائبا بابويا بعد ان اخرجوا المسلمين منها(1).

د- البشناق (البجناك) والكومان

تعرضت الجبهة الشمالية من الامبراطورية البيزنطية في البلقان الى هجمات قبائل البشناق(**)(البجناك) وهم من القبائل البربرية ذات الاصول التركية عرفهم البيزنطيون قبل القرن الحادي عشر واستمرت هجماتهم على بيزنطة منذ تولي الامبراطور قسطنطين الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي(2) .

وعندما قامت الحرب الاهلية داخل الامبراطورية البيزنطية بعد خلع ميخائيل السابع سنة(1071-1078)فسح المجال للبشناق فقاموا بنهب اراضي بيزنطية في البلقان(3).وقد الحقت هذه القبائل خسائر كبيرة في موارد الامبراطورية عندما استقروا على حدودها لانهم يتفقون مع اعداء الامبراطورية ويقومون بعمليات النهب والسلب(4) . وقد هاجم الكومان(***)والبشناق تراقيا واستطاع الكسيوس(****)كومنيوس الاول ان ينجو من الموت بصعوبة وذلك عندما حصل بينهم خلاف حول الغنائم سنة (1088م) وبعدها استطاع الكسيوس ان يعقد هدنة مع اعدائه لكن البشناق عاودوا الهجوم على تراقيا عندما غرر بهم صاحب ازمير(*****)الكسيوس واستطاع بدبلوماسيته اجراء اتفاقية مع الكومان وتوجيههم ضد حلفائهم(5)

(*) روبرت جويسكارد Robert –Guiscard : تابع اقطاعي عليه اداء الخدمات الاقطاعية لسيده البابا ، قاسم ، عبدة قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، مطابع السياسة ، الكويت 1990 ،ص42 .

(1) فشر ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، ج1،ص131،130،44 .

(**) البشناق : (البجناك) وهـــم القبيلـــة التركيـــة الـــتي كانـــت تجـــوب الـــبلاد مـــن وراء نهـــر الـــدانوب فكـــانوا يجتـــازون هـــذا النـــهر مـــن اجـــل الاغـــارة (رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص111) .
(2) العريني ، الدولة البيزنطية ،ص795 .
قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص84-85 .
هسي : العالم البيزنطي ، ص172 .
(***) الكومـــان : قبائـــل تركيـــة بربريـــة معروفـــة باســـم القبجـــاق وجهـــوا غاراتهم نحو الامبراطوريـــة البيزنطيـــة طـــوال القـــرن الحـــادي عشـــر (العـــريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1،ص49) .
(****) الكســـيوس كومنيـــوس الاول : وهـــو مؤســـس ســـلالة كـــومنين والامبراطـــور الاول الـــذي وصـــل الى العـــرش ســـنة (474-512هـــــ) (1081-1118م) بحـــدوث انقـــلاب بالقســـطنطينية (عاقـــل، نبيـــه، الامبراطورية البيزنطية ،دمشق،1969،ص257)
(*) صاحب ازمير : اصـبح جاكـا صـاحب ازمـير بعـد وفـاة سـليمان بـن قتلمش سـنة 1086م وضـم اليـه ولايـات مـاقز لوميـدلكي وبعـض جـزر بحـر ايجـة بحيـث اسسـا ولايـة ازمـير الكـبرى فخـاف منـه الكسـوس كومنينـوس الاول فاشـار عليـه بخلـع ارسـلان وقتلـه (رايـس ، تامـارا تـالبوت السـلاجقة تـاريخهم وحضـارتهم ، ترجمـة لطفـي الخـوري وابـراهيم الداقوقي ، مطبعة الارشاد ، بغداد 1968،ص50) .
5- كـلاري ، روبـرت ، فـتح القسـطنطينية ، ترجمـة د. حسـن حبشـي ، مطـابع دار الكتـاب مصـر ، القـاهرة ،ص150 ؛ العـريني ، الشـرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1،ص82-83 .

العلاقـات بـين شـطري المسـيحية بعـد معركـة ملاذكـرد (464هـ- 1071م)

ان وفـــاة الامبراطـــور البيزنطـــي باســـيل الثـــاني (976-1025م) تمثـــل ايـــذانا بتدهور احوال الامبراطورية البيزنطيـــة وقـــد تمثـــل ذلـــك في الصـــراع مـــن اجـــل الوصـــول الى الســـلطة ، اذ نجـــم عـــن ذلـــك ان وصـــل الى العـــرش عـــدد مـــن الاباطرة الضـــعفاء ، كمـــا تســـلطت بعـــض النســـاء مـــن البيـــت المقـــدوني (*) .وفي تلـــك الحقبـــة ظهـــر الســـلاجقة والنورمـــان وكـــان لكليهمـــا اطمـــاع في الامبراطورية البيزنطية على الرغم من اختلاف اصول كل منهما(1).

وقد جاء الســـلاجقة الاتـــراك مـــن بـــراري القرغيـــز في تركســـتان واســـتقروا في بلاد مـــا وراء النـــهر ســـنة (428هــــ/1038م)واعتنقـــوا الـــدين الاســـلامي وكان اسم زعيمهم طغرل بك(2) .

وبـــدات تحركـــاتهم نحـــو الجهـــة الشـــرقية للامبراطوريـــة البيزنطيـــة ووصـــلوا الى عاصمة الخلافة العباسية بغداد فدخلوها سنة 447هــ-1055م(3) .

وبعد وفاة طغربـــك ســـنة (455هــــ/ 1063م) جـــاء مـــن بعـــده ابـــن اخيـــه الـــب ارســـلان الـــذي اســـتطاع ان يصـــل الى قلـــب ارمينيـــا واســـيا الصـــغرى (4) .

فســـيطروا علـــى كابادوكيـــا (قبادوقيـــا) وقيصـــرية(**) وقـــد حـــاول الامبراطـــور البيزنطـــي ارمـــانوس ديوجيـــوس(***) الرابـــع ان يصـــد الخطـــر السلجوقي سنة (460هــ/1067م) لكنه لم ينجح في ذلك (5) .

(*) البيـــت المقـــدوني : يضـــم مجموعـــة مـــن الابـــاطرة الـــذين حكمـــوا الامبراطوريـــة البيزنطيـــة مـــن ســـنة (976-1025م) ، يوســـف ، تـــاريخ الدولة البيزنطية ،ص175 .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص172-173 ,

عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص253 .

هسي ، العالم البيزنطي ، ص173 .

طرخان ، ابـــراهيم علـــي، الناصـــر صـــلاح الـــدين ، مكتبـــة الانجلـــو المصـــرية ، القاهرة 1958، ص11 .

(**) قبادوقيـــا وقيصـــرية : وهـــي مـــن اقـــاليم بيزنطـــة في اســـيا الصـــغرى (زابـــوروف ، ميخائيـــل ، الصـــليبيون في الشـــرق ، ترجمـــة اليـــاس شـــاهين ، دار التقدم ، موسكو 1986،ص29 .

(***) ارمانوس ديـــوجنس : امبراطـــور بيزنطـــي وصـــل الى العـــرش مـــن ســـنة (1067-1071م) حصـــل علـــى بعـــض الانتصـــارات مـــع الســـلاجقة في معركة (ملاذكرد) لكنه وقـــع اســـيراً وبعـــد اطـــلاق ســـراحه حـــبس وسملـــت عيناه ومات (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص432-433)

(5) عاشـــور ،اوربـــا العصـــور الوســـطى ، ص43، عاقـــل ، الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ،ص254 ، عطـــا ، زبيـــدة ، التـــرك في العصـــور الوســـطى ، دار الفكر العربي ، (ب،ت) ، ص49 .

وقد كانت ارمينيا وشـــرق اســـيا الصـــغرى قـــد احتلـــها الـــب ارســـلان وعنـــد ذلك قـــام الامبراطـــور رومـــانوس الرابـــع بتهيئـــة جيوشـــه وتزويـــدها بالـــذخيرة لاخراج السلاجقة منها(1).

وبـــالنظر لقلـــة عـــدد الجـــيش الســـلجوقي قياســـا بالاعـــداد الكـــثيرة للجيـــوش البيزنطيـــة ، حـــاول الـــب ارســـلان ان يكســـب الوقـــت فارســـل وفـــدا الى الامبراطور البيزنطـــي رومـــانوس الرابـــع لعقـــد هدنـــة بينـــهما ولتجنـــب اللقـــاء بالجيوش البيزنطيـــة فكـــان رد الامبراطـــور البيزنطـــي ســـلبيا وقـــال : " لا هدنـــة الا بالري " ممـــا اغضـــب الـــب ارســـلان لان الامبراطـــور كـــان يريـــد الوصـــول الى داخل دولتهم (2) .

وفي عـــام (463هـــــ) التاســـع مـــن اب (1071م) اوهـــم الـــب ارســـلان البيـــــزنطيين بالانســـــحاب الى وادي ملاذكـــــرد(*) بهـــــدف جـــــر القـــــوات البيزنطية الى المكـــان الـــذي يختـــاره لايقـــاع خســـائر كـــبيرة بـــالبيزنطيين الـــذين

اخذت قواهم بالتزايد على الرغم من قلة قوات الب ارسلان وكانت الدلائل تشير الى ترجيح كفة الامبراطور رومانوس في المعركة(3) .

الا ان ثبات المسلمين قد قلب موازين المعركة وتم سحق القوات البيزنطية سحقا تاما ووقع الالاف منهم في الاسر بما فيهم الامبراطور البيزنطي اضافة الى عدم اشتراك قسما من قوات الفرنجة وقد دارت بين الطرفين معركة(**) ضارية في مدينة ملاذكرد حيث هزمت فيها قوات الجيش البيزنطي انقسم خلالها الجيش الى جماعات صغيرة وتركوا الامبراطور يواجه السلاجقة لوحده(4) .

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص433 .

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص322 ؛ ابن الجوزي ، ابي الفرج عبد الرحمن بن علي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ط1،ج8 ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بعاصمة حيدر اباد ،1359هـ ،ص463 ؛ الذهبي ، الحافظ شمس الدين محمد بن عثمان بن قايماز ، (ت748هـ-1347م) ، العبر في خبر من غبر ،ط2، ج3، تحقيق فؤاد رشيد ، مطبعة حكومة الكويت ،1984 ،ص253 ؛ حسنين ، د. عبد النعيم ، سلاجقة ايران والعراق ، ط2،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1970 ،ص56؛ حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص35 .

(*) ملاذكرد (مانزكيرد) : وملادجرت يطلق عليها عدة تسميات وهي بلدة مشهورة بين خلاط وبلاد الروم وتقع في ارمينيا الكبرى بالقرب من قلعة خرتبرت (البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع ،ج3، تحقيق محمد النجاوي ،دار احياء التراث العربي، بيروت 1955 ، ص1314)

الفارقي ، احمد بن يوسف بن علي ، تاريخ الفارقي ، تحقيق د. بدوي عبد اللطيف عوض ، بيروت 1974 ،ص189 ؛ رايس ، السلاجقة ، ص38 .

(4) حبشي ، حسن ، الحرب الصليبية الاولى ، ط2،دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1958،ص33 .

((وتعتبر هذه الهزيمة نقطة تحول خطيرة في التاريخ البيزنطي ، اذا ترتب عليها ضياع الاجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية وعدم استطاعة الامبراطورية الثبات بعد ذلك في وجه توسع السلاجقة في اسيا الصغرى))(1) . ورجع الامبراطور رومانوس الى القسطنطينية بعد ان وافق السلطان على اطلاق سراحه على ان يدفع الفدية والجزية وفك اسر جميع المسلمين (2) . وبعد وفاة الب ارسلان استمر التوسع السلجوقي في اسيا الصغرى بقيادة سليمان بن قتلمش (*) واتخذوا من نيقية(**) عاصمة لهم وسموا السلاجقة باسم سلاجقة الروم وذلك تبعا للجهات التي عرفت باسم بلاد الروم (3) .

واصبحت الامبراطورية البيزنطية التي تعد حامية اوربا المسيحية من التوسع الاسلامي ، عاجزة عن ايقاف الزحف السلجوقي الذي هيمن على معظم اسيا الصغرى (4) .

ويرى عاشور ان ملاذكرد تعد في فكر بعض المؤرخين ((دعوة للحرب الصليبية في الغرب الاوربي كرد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية سنة 1071م))(5)-.

ان توسع بيزنطة في الشرق زاد من العداء بينها وبين اليعاقبة والسريان والارمن في القرن العاشر واجبر ملوك الارمن الذين اخذوا اقطاعات جديدة في كابادوكيا وتركوا اقطاعاتهم للامبراطورية البيزنطية على اعتناق المذهب

عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص433 .

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ،ج10،ص467، ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ،ص303 ؛ الحسيني ، صدر الدين ابو الحسن علي بن ابي ناصر(ت622هـ) ،زبدة التواريخ في اخبار الامراء الملوك السلجوقية، اخبار الدولة السلجوقية، نشريات محمد اقبال ، لاهور 1933،ص50 ؛ الجميلي ، د. رشيد عبد الله ، امارة الموصل في العصر السلجوقي (419-521هـ) ،ط1، مطبعة اوفسيت الحديث ،1980 ، ص99 .

(*) سليمان بن قتلمش : كان والد سليمان وهو قتلمش بن اسرائيل ابن عم السلطان طغربك وقد انشق قتلمش على طغربك في اواخر ايامه ونزح مع بعض التركمان الى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي بحر قزوين وتزعم قتلمش الثورة على الب ارسلان التي الت اليه السلطنة على السلاجقة وكان من ابنائه سليمان بن قتلمش الذي توسع بسلطنة السلاجقة دون اهتمام بالبيزنطيين (حلمي ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ، ص32-39) .

(**) نيقيه : وهي مدينة قديمة ازلية من عمل القسطنطينية لايعرف بانيها لها بحيرة طولها 12ميلا (الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عياش ، طبع في مطابع هيرلبرغ ، بيروت 1975،ص589) .

رايس ، السلاجقة ، ص40-41-42؛ د. قحطان عبد الستار الحديثي ، د. صلاح عبد الهادي ، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي ، مطبعة جامعة البصرة ، العراق ،ص401 .

لصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص47؛ زايوروف ، الصليبيون في الشرق ، ص31 .

عاشور ،د. سعيد عبد الفتاح ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، دار النهضة العربية للطباعة ، بيروت 1972، ص45 .

الارثوذكسي ، ولم يتعرض المسيحيون الى ضغوط خلال القرن الحادي عشر الغرب للكنيسة الشرقية ، وعندما قطعت بيزنطة علاقاتها البابويه مع الغرب حدثت فجوة .بينهما وظل البيزنطيين يكنون الكراهية لروما وذلك لسوء العلاقات بينهما (1) .

لقد ضعفت الامبراطورية البيزنطية نتيجة للهزائم امام السلاجقة مما جعل البابا جريجوري السابع يستغل ظروف بيزنطة ويحاول ان يجعل الكنيسة الارثوذكسية تابعة للكنيسة الكاثوليكية اذ اتبع البابا الطرق الدبلوماسية وبدا بالمحادثات مع ميخائيل السابع من خلال رسالة ارسلها البابا الى الامبراطور البيزنطي لكن دعوته لم تجد قبولا لذلك فكر بشن حملة صليبية بحجة تقديم المساعدة للمسيحيين الارثوذكس وقد لقي مشروع البابا تأييدا من قبل بعض الشرائح في فرنسا وجمع جيشا لهذا المشروع لكنه عدل عنه بسبب الحروب التي بدأت ضد الامبراطورية الالمانية (2) .

موقف النورمان من الامبراطورية البيزنطية

تعرضت الامبراطورية البيزنطية الى توسع السلاجقة في جهتها الشرقية كما تعرضت جهتها الغربية الى توسع خطير من قبل النورمان في النصف الثاني من القرن الحادي عشر(3) .

نتيجة للاوضاع المرتبكة في الامبراطورية البيزنطية ونزاعاتها مع البابا(4) وفي سنة 1042م جاءت مجموعتان كبيرتان من النورمان من نورمندية غرب فرنسا ومن غرب اوربا فتكونت المجموعة الاولى من مغامرين نورمان عملوا في خدمة الامبراطورية البيزنطية كجنود مرتزقة لان

الامبراطوريـــة البيزنطيـــة كانـــت في حاجـــة الـــيهم لصـــد الزحـــف الســـلجوقي (5) .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص175 .

زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ص30-31-32 .

عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص79 .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ،ص143 .

عاشور ، الحركة الصليبية ، ج1،ص124 .

امـــا المجموعـــة الثانيـــة فضـــمت جماعـــات مـــن الفرســـان الـــذين انتشـــروا في اراضـــي بيزنطيـــة بجزيـــرة صـــقلية وجنـــوب ايطاليـــا . وكانـــت تريـــد العـــيش هناك وكـــان زعـــيمهم ولـــيم هوتفيـــل(*) وابنـــه روبـــرت جويســـكارد الـــذي اســـتطاع تأســـيس دولـــة نورمانيـــة في ايطاليـــا وصـــقلية(1) . وبعـــد وفـــاة قســـطنطين دوكـــاس زاد نفـــوذ النورمـــان في ايطاليـــا واضـــطربت احـــوال بيزنطـــة ســـنة (1067م) فتوجهـــت انظـــار روبـــرت جويســـكارد الى بـــاري Bari عاصـــمة امـــلاك بيزنطـــة في ايطاليـــا (2) وتمكـــن روبـــرت جويســـكارد من السيطرة عليهـــا بعـــد ســـنة 1071م بعـــد حصـــار دام ثـــلاث ســـنوات (3) .

وكان سقوط بـــاري علـــى يـــد روبـــرت جويســـكارد نقطـــة هامـــة في تـــاريخ بيزنطة والنورمنديين معـــا ((لانـــه حمـــل معـــنى اخـــراج القـــوات البيزنطيـــة مـــن ايطاليـــا وتقلـــيص النفـــوذ البيزنطـــي حـــتى في البحـــر المتوســـط وظهـــور قـــوة حربيـــة بحريـــة جديـــدة هـــي قـــوة النورمنـــديين))(4) . وبعـــد الاطاحـــة بـــالامبراطور رومـــانوس الرابـــع جلـــس مـــن بعـــده علـــى عـــرش الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ميخائيـــل الســـابع ســـنة (1071م) ، اذ وجـــد هـــذا الامبراطـــور ان هناك جماعات مـــن المرتزقـــة النورمـــان في الجـــيش البيزنطـــي وهـــؤلاء يهـــددون الامبراطوريـــة البيزنطيـــة . مـــن قـــادة الجماعـــات المرتزقـــة هـــو روســـل

بايليـــل(**) Rossel de Bailleul (5) الـــذي اســـتغل ضـــعف الامبراطوريـــة البيزنطية بعـــد هزيمـــة ملاذكـــرت وتمكـــن مـــن تاســـيس دولـــة في الاناضـــول . وفي سنة 1073م اعلـــن رســـل تمـــرده حيـــث قـــام بقيـــادة ثلاثـــة الاف مـــن جماعته للاستيلاء على الجهات المحيطة بقونية وانقره (6) .

(*) ولـــيم هوتفيـــل : امـــير النورمـــان في ابوليـــا ســـنة 1042 واتخـــذ ملفـــي Melfi مركزا له (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ص328) .

عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص79 .

حبشي ، الحرب الصليبية الاولى ، ص43 .

اليوســـف ، الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ، ص143 ، هســـي ، العـــالم البيزنطـــي ،ص174 .

حبشي ، الحرب الصليبية الاولى ، ص47 .

(*) روسل بايليل : هو قائـــد للجماعـــات المرتزقـــة مـــن النورمـــان الـــذي كـــان في خدمـــة الامبراطوريـــة البيزنطيـــة لكنـــه تمـــرد عليهـــا ، (العـــريني ، الشـــرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج1، ص65-66) .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص102-103 .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1،ص65-66 .

وارســـل الامبراطـــور البيزنطـــي ميخائيـــل الســـابع حملـــة بقيـــادة الكســـيوس للقضاء على التمـــرد وكـــان الكســـيوس ضـــابطا في منطقـــة الحـــدود البيزنطيـــة ، وعلى الرغم من صغر سنة الا انـــه كانـــت خـــبرة بطريقـــة القضـــاء علـــى خطـــر النورمان اذ استطاع اغـــراء احـــد الســـلاجقة ويـــدعى تـــتش في اســـيا الصـــغرى بعد اجراء المحالفـــات معهـــم حيـــث تم القـــاء القـــبض علـــى رســـل وارســـاله الى القسطنطينية (1) .

وقد حاول ميخائيل السابع الابتعاد عن هجمات النورمان في ايطاليا عن طريق المصاهرة بزواج ابنه من ابنة روبرت جويسكارد وفي هذه الظروف تم عزل ميخائيل السابع عن منصبه سنة (1078م) واصبح الطريق مفتوحا امام النورمان لغزو املاك الامبراطورية البيزنطية (2) .
وكان روبرت جويسكارد قد غضب عند فسخ خطوبة ابنته فعبر بحر الادرياتيك لغزو املاك الامبراطورية البيزنطية(3) وتقول آن كومنين(4) : ((ان جيش روبرت المكون من اعداد كبيرة من الفرسان والمشاة كانوا قد ضربوا خيامهم في اراضي الامبراطورية في شهر حزيران سنة 1081م)) .
ولما غزا روبرت اراضي بيزنطية سنة (1081م) بايطاليا بارك البابا جريجوري السابع هذه الحرب ودعى رجال الدين والفرسان في جنوب ايطاليا الى الاشتراك في حملة روبرت جويسكارد (5) . ولم يكتفي النورمان بالسيطرة على جنوب ايطاليا اذ اخذوا يتوسعون على حساب الامبراطورية البيزنطية فقد سيروا جيوشهم من جنوب ايطاليا الى الشاطئ الغربي لشبه جزيرة البلقان ، وكان الزحف النورماني متزامنا مع تنصيب الامبراطور الكسيوس كومنين على عرش بيزنطة سنة (1081م) فادى ذلك الى نشوء علاقة جديدة بين الامبراطور البيزنطي والامير النورماني كان محورها الخلاف حول امارة انطاكية .

Ann comnena , The Alexiad Edited and translated by Elizabeth A Dawes (Landon kegan paul 1928) , Vol.1.p.32-33 .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1،ص878-879 .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص107 .

Alexiad ,op,cit.Vol.5p.p.135-137 .

زابوروف ، الصليبيون في الشرق ،ص32 .

وتوجهت قوات روبرت جويسكارد الى القسطنطينية بعد ان احتلت دور ازو سنة 475هـ-1082م وهربت قوات الكسيوس امام الزحف النورمندي واستطاع بوهيمند ابن روبرت جويسكارد ان يحتل مراكز مهمة في ايبروس(*) ومقدونيا(**) بعد ان رجع والده الى ايطاليا نتيجة لحدوث اضطرابات فيها وترك قواته بيد ابنه(1) .
وبعد الهزائم التي مني بها الكسيوس الاول استطاع ان يحقق نصرا على بوهيمند وذلك بسبب التفرقة بين الاعداء الذي استخدمها الكسيوس الاول واستنجاده بزعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش له بسبعة الاف مقاتل عندما كانت الامبراطورية البيزنطية قريبة من السقوط وبعدها رجع بوهيمند سنة 476هـ-1083م الى ايطاليا لتجديد قواته (2) .
وكان على الكسيوس ان يتحالف مع البنادقة كي يعينونه باساطيلهم الضخمة ازاء حصولهم على الامتيازات التجارية في القسطنطينية كما ارسل الكسيوس رسلا الى هنري الرابع يطلب منه غزو لمبارديا لكي يشغل روبرت جويسكارد عن الامبراطورية البيزنطة (3). ثم رجع روبرت وابنه بوهيمند للحرب مع الامبرطور البيزنطي انتقاما للتحالف البيزنطي مع البنادقة واستمرت الحرب بين الطرفين لمدة طويلة على سواحل ايبروس.بمشاركة بوهيمند في الغزو الصليبي وذلك طمعا في تأسيس اماره صليبية في المشرق وبعد الموت المفاجئ لروبرت جويسكارد سنة 1085 م ،زال خطر النورمان لفترة مؤقتة (4) . حيث تبددت احلام بوهيمند واصبح مشغولا في حرب الوراثة في جنوب ايطاليا .

(*) ايبروس : وهو اقليم يقع على البحر الادرباتيكي وعاصمة دور ازو (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1 ،ص200) .

(**) مقدونيا : هو اسم لمصر باليونانية القديمة ولها سور طويل من جهة الشرق (ابن الفقيه ، ابو بكر احمد بن ابراهيم الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، طبعة في مدينة ليدن بمطابع برلين ،1302هـ ، ص116) .

(1) لانجر ، وليام ، موسوعة تاريخ العالم ، ج3،ترجمة محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر 1959،ص686 ؛ العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1،ص81-82 .

Vasiliev. AA.History of the Bayzantine Empire , (madison ,and milwa ukee-1964)Vol,11.p.381

(3) قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص89-90 .

(4) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج1، ص137-138؛ عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1، ص125



ظهور الاسلام

تعد معركة مؤتة سنة (8هـ- م) اول صدام مسلح بين المسلمين والروم البيزنطنيين ، وعلى الرغم من عدم التكافئ بين قوات الطرفين ، الا انها كانت تمثل الاشارة الواضحة والدعوة الى تحرير بلاد الشام من سيطرة البيزنطيين (1) .

وفي العصر الراشدي وما غزوة تبوك التي قادها الرسول (صلى الله عليه وسلم) في رجب سنة (9هـ) الا تاكيدا على امر تحرير الشام من يد الروم ونشر الاسلام بين ربوعها (2) .

واصل ابي بكر الصديق (رضي الله عنه) تنفيذ سياسة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتوجيه انظار المسلمين نحو بلاد الشام بارساله خالد بن سعيد بن العاص على راس جيش الى تيماء قرب حدود الشام ليكون درعا لمن وراءه من المسلمين في حالة تعرض الروم او حلفائهم لهم في اثناء حروب الردة (3) .

ثم قام ابو بكر بارسال الجيوش الى بلاد الشام من اجل تحريرها لامر الذي دعى بالروم الى حشد قواتهم لمواجهة المسلمين ، فحدثت معركة اجنادين سنة 13هـ/ م التي انتصر فيها المسلمين (4) .

هذا الانتصار دعى البيزنطينيين الى المبادرة بحشد الكثير من القوات لمواجهة المسلمين والتقى الطرفان في وادي اليرموك ، حيث جرت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمين على القوات البيزنطية سنة (15هـ / م)(5) .

ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك ، سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد (ت207هـ) ، كتاب المغازي ،

تحقيق د. مارسدن جونسن ، ط3، بيروت 1984 ،ج2،ص755-756 .

ابن هشام ، عبد الملك (ت280هـ) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقاء واخرون ، بيروت 2000 ،ج4،ص169-179 ؛ المسعودي ، علي بن الحسين بن علي (ت346هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج2،ص281 .

الطبري ، تاريخ ،ج ، ص، ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج،ص؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ) ؛ كتاب العبر ، بيروت ،د.ت، ج2،ص82 .

البلاذري ، ابن العباس احمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان ، حققه وشرحه عبد الله انيس الطباع و عمر انيس الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت 1407هـ/1987م ،ص156 ؛ ابن اعثم ، ابن محمد احمد (ت314) ؛ كتاب الفتوح باعتناء ، د. عبد المعيد خان ،ط1، حيدر اباد ،ج1،ص145-150 .

البلاذري ، فتوح البلدان ،ص184 .

اما المواجهة البحرية بين الطرفين فقد كانت بين الاسطولين العربي والبيزنطي سنة (34هـ/ م) في معركة ذات الصواري ، والتي انتهت بانتصار المسلمين على الاسطول البيزنطي (1) .

وكانت المواجهة مع البيزنطينين في العصر الاموي موزعة على جبهتين الاولى الثغور الشامية والثانية الثغور الجزرية (2) .

وشهد العصر الاموي ، كذلك ، عدة محاولات لفتح القسطنطينية ، ففي سنة (48هـ/ م) قاد فضالة بن عبيد الانصاري جيشا كبيرا مخترقا به اسيا الصغرى حتى بلغ القسطنطينية ، لكن تعذر عليه فتحها لمناعة حصونها الامر الذي دفع الخليفة معاوية الى ارسال حملة جديدة

بقيادة ابنه يزيد لفتح القسطنطينية الذي عاد عنها بعد ان حاصرها (3)
.

وكانت اخر محاولات الامويين للاستيلاء على القسطنطينية في خلافة سليمان ابن عبد الملك سنة (98هـ/ م) حيث اعد جيشا لذلك الامر ، واسند قيادته الى مسلمة بن عبد الملك ، الذي حاصرها برا وبحرا ولكن هناك عدة عوامل حالة دون استيلائه عليها ، فسحب قواته بامر من الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة (99هـ/ م) (4) .
وبسبب انشغال العباسيين في توطيد حكمهم ، اخذت الدولة البيزنطية تستغل الظروف لصالحها لنهابهم الحصون والثغور الاسلامية ، ولهذا اولى الخلفاء العباسيين هذه الثغور اهمية كبيرة ، فقد حسن الخليفة ابو جعفر المنصور هذه الثغور واعاد بنائها وجعل لها حاكما اداريا مستقلا وحشد فيها الاف المقاتلين (5) .
وبسبب انشغال العباسيين في توطيد حكمهم ، اخذت الدولة البيزنطية تستغل الظروف لصالحها لنهابهم الحصون والثغور الاسلامية ، ولهذا اولى الخلفاء العباسيين هذه الثغور اهمية كبيرة ، فقد حسن الخليفة ابو جعفر المنصور هذه الثغور واعاد بنائها وجعل لها حاكما اداريا مستقلا وحشد فيها الاف المقاتلين (5) .

-1

-2 ينظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص223-وما بعدها .

-3

الطبري ، تاريخ ،ج6،ص553؛ ابن الاثير ، ج ، ص .

لبلاذري ، فتوح البلدان ، ص227 .

وقد ارسل الخليفة المهدي حملة عسكرية بقيادة الحسن بن قحطبة بن تسبيب فتوغل في بلاد الروم ودمر الكثير من المدن سنة (162هـ/ م) (1) .

تواصلت حملات العباسيين ضد البيزنطيين في عهد هارون الرشيد الذي قاد البعض منها بنفسه (2) .

وكذلك قاد الخليفة المعتصم حملة ضد البيزنطيين للرد على اعتداءاتهم على المسلمين ، فدخل مدينة عمورية وخربها(3) .

واستمرت العلاقات الحربية بين الدولتين حيث كانت الدولة البيزنطية تتحين الفرص للاغارة على الاراضي الاسلامية ، فيقوم المسلمين بالرد علة ذلك ، وفي منتصف القرن الخامس الهجري هيمنت على المشرق الاسلامي قوة جديدة ، هم السلاجقة الذين سرعان ما مدوا نفوذهم الى اسيا الصغرى وبداوا بالتوسع في البلاد الواقعة بين بحيرة وان وارومية واستيلائهم على جورجيا وبلاد الارمن فاثار ذلك مخاوف البيزنطيين ، فهاجم الامبراطور البيزنطي رومانوس الاطراف الشمالية لبلاد الشام ، الامر الذي دفع الب ارسلان الى السيطرة على بلاد الشام(4).

وقد حقق الب ارسلان انتصارا كبيرا على البيزنطيين في موقعة ملاذكرد في عام (463هـ/ 1071م) وسحق السلاجقة معظم الجيش البيزنطي ، ووقع الامبراطور رومانوس في الاسر (5) .

البلاذري ، فتوح البلدان ، ص231 .

ابن الاثير ،

ابن القلانسي ،
ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص .

(*) الب ارسلان : معناه الاسد الشجاع وهو لقب تركي اتخذ الب ارسلان اسم محمد عند اعتناقه الاسلام بدل من اسرائيل الذي كان يعرف به واضفى عليه الخليفة القائم العباسي لقب غر الدين (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص431) .

معركة ملاذكرد والاستغاثة بالغرب

بعد الهزيمة التي الحقها السلاجقة بالامبراطورية البيزنطية في معركة ملاذكرد سنة (464هـ-1071م) فقدت بيزنطة سلطانها في معظم اسيا الصغرى عندما وصلت ممتلكات السلاجقة الى بحر مرمرة (1) .

ان النتائج التي ترتبت على هذه المعركة وما رافقها من ظروف صعبة احاطت بالامبراطورية البيزنطية ، كل ذلك قد اجبر الامبراطور البيزنطي ميخائيل(*) السابع ان يطلب العون من البابا جريجوري(**) السابع سنة (1073م) لحماية بيزنطة من الاخطار التي تحيط بها (2) .

وفي سنة (1074م) جهز البابا جريجوري جيشا لغرض ارسال حملة تسترجع بها اسيا الصغرى من المسلمين الى بيزنطة بعد سماعة للطلب المتكرر من قبل الامبراطور ميخائيل (3) . وسعى البابا الى اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية لكن الظروف التي أحاطت بالبابا جريجوري وهي مشكلة الخلافات بينه وبين روبرت (***) جويسكارد(4) ، ثم تلا ذلك مشكلة التقليد العلماني (****) مما اعاقه عن تحقيق خطته (5) .

---

(1) باركر : ارنست ، الحروب الصليبية ،ط2،دار النهضة العربية ، (بيروت 1967) ،ص19.

(*) ميخائيل السابع : امبراطور بيزنطي اغتصب العرش (1071-1078م) بعد اسر رومانوس بيد السلاجقة ، (عبيد ، روما وبيزنطة ،ص48) .

(**) البابا جريجوري السابع : الذي وصل الى العرش سنة(1073م) واصدر قراره سنة 1075 العنف ضد التقليد العلماني المشار اليه مما ازعج هنري الرابع وبقية ملوك الغرب (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ،ص353) .

(2) العريني ، الدولة البيزنطية ،ص879 .

(3) العريني ، الدولة البيزنطية ،ص879 .

(***) روبرت جويسكارد : وهو قائد نورماني جاء من نورمنديا في غرب فرنسا الى جنوب ايطاليا وحاول اقامة دولة نورماندية على حساب بيزنطة والسلاجقة بعد ان زحفت قواته الى القسطنطينية ثم رجع الى ايطاليا لظروف تستدعي ذلك (عاشور ، الحركة الصليبية ،ص123-124) .

(4) رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ج2،ص114-115 .

(****) التقليد العلماني : لا يجوز للحاكم العلماني (السياسي) ان يقلد رجال الدين المناصب الدينية فمن يعمل ذلك يحرم من الكنيسة وقد اعلن هذا القرار البابا جريجوري السابع سنة 1075 (عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ص348-353) .

(5) عطا ، الترك في العصور الوسطى ،ص69 .

وبعد تدهور احوال الامبراطورية البيزنطية فتح المجال للطامعين في الحكم للقيام بثورة ومنهم نقفور(*) (Nicephorus Botaneiates) سنة (1078م) الذي نصب نفسه امبراطورا باسم نقفور الثالث بعد تعاونه مع السلاجقة (1) ، ولكن الجيش تمكن من القيام بانقلاب ضده ، ونصب الكسيوس كومونين امبراطوراً بدلا منه (2) . ((الذي يعتبر من اكثر الاباطرة كفاءة عسكرية وادارية تمكن بسياسته من المحافظة على وحدة الامبراطورية من الفوضى وعالج المشاكل الخارجية والداخلية المعقدة واتقن مخاطر البعض الاخر))(3) .

نجـــح الكســـيوس في الوصـــول الى العـــرش بعـــد سلســـلة مـــن الفـــتن والاضـــطرابات والمـــؤامرات الداخليـــة وســـاعد علـــى ذلـــك خدماتـــه الحربيـــة التي قدمها للدولـــة اثنـــاء مشـــاكلها وكوارثهـــا وكـــان عارفـــا بـــاحوال الـــبلاد الداخلية والخارجية فسعى الى بناء ما دمرته الاحداث (4) .

واثنـــاء تســـلمه منصـــبه واجهتـــه مشـــكلة الســـلاجقة لـــذا توجـــه نحـــو البابـــا اوربان(**) الثـــاني الـــذي تســـلم منصـــبه ســـنة (1077م)(5) .وذلـــك لحاجـــة الامبراطوريـــة البيزنطيـــة الى جـــيش مـــن المرتزقـــة يكونـــون تحـــت امـــرة الامبراطور وسيطرته ، وقد اعرب البابـــا اوربـــان الثـــاني عـــن خشـــيته مـــن قـــوة السلاجقة وقسوتهم على الكنـــائس الشـــرقية فـــاراد تعـــاون جميـــع ملـــوك اوربـــا وامرائهم في حملة صـــليبية لحمايـــة القـــبر المقـــدس وحجـــاج بيـــت المقـــدس (6) . كما يزعمون .

(*) نقفـــور (Nicepharus Botaneiates) وهـــو احـــد قـــادة الامبراطـــور كـــان يحكـــم اقلـــيم عموريـــة فريجيـــا (عاشـــور ، الحركـــة الصـــليبية ،ج1،ص91) .

عاشور ، د. سعيد عبـــد الفتـــاح ، تـــاريخ العلاقـــات بـــين الشـــرق والغـــرب في العصور الوسطى ، ص47 .

Setton , Kenneth ,M,ahistory of the cruades ,pirinted inunited sates of (America ,1969) ,p.Vol .2 , p.126 .

اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ،ص144 .

يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص207 .

(***) اوربان الثاني : فرنســـي الاصـــل كـــان راهبـــا في مدينـــة كلـــوني بفرنســـا (المطـــوي ، محمـــد العروســـي ، الحـــروب الصـــليبية في المشـــرق والمغـــرب ، مؤسسة جواهر للطباعة ، (بيروت 1982) ،ص46) .

(5) Setton , op,cit,vol,II,p.126 .

(6) Setton , op,cit,II,p.126 .

وذكر البعض ان اوربـــان الثـــاني عقـــد اول اجتمـــاع ديـــني في بيـــاكتر(*) ســـنة 1095م(1) .

وقد حضر هـــذا المجمـــع وفـــدا ارســـله الامبراطـــور البيزنطـــي الكســـيوس حيـــث بينوا خطر الســـلاجقة علـــى المســـيحيين جميعـــا، رغـــم ضـــعف دولتـــهم ويجـــب تقـــديم المســـاعدة كـــي يســـتطيع الكســـيوس القضـــاء علـــيهم(2) بارســـال جيـــوش يتـــولى توجيههـــا لقتـــال الســـلاجقة فلـــبى البابـــا طلبـــهم (3) ويمكـــن القـــول ان الوفـــد قـــد بـــالغ في طلبـــه ووصـــفه وضـــع احـــوال الامبراطوريـــة الشرقية والغربية مـــن اجـــل الحصـــول علـــى مســـاعدة الامـــراء والاســـاقفة(4) . ويبدو ان ذلك لم يكن متطابقـــا مـــع طلـــب الكســـيوس كـــومنين ولـــيس هنـــاك شاهد عيان يتحـــدث عـــن طلـــب الامبراطـــور في الصـــيغة المبـــالغ بهـــا في طلـــب العون مـــن البابـــا غـــير الـــذين كتبـــوا في وقـــت متـــاخر(5) . ثم رجـــع البابـــا اوربان الثاني من ايطاليـــا الى فرنســـا فـــزار مدينـــة بـــوي(**) للـــدعوة الى مـــؤتمر كلير مونت(***) .

ثم واصـــل مســـيره الى مدينـــة ســـان جيـــل (****) ولم تكـــن هنـــاك اشـــارة للحـــرب الصـــليبية . وبعـــدها توجـــه نحـــو جنـــوب فرنســـا الى ديـــر كلوني(*****) .(6).

(*) بياكتر : مدينة تقع في شمال ايطاليـــا وقـــد عقـــد فيهـــا مجمـــع ديـــني برئاســـة البابا سنة 100م (عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1،ص131) .

(1) مونرو : مكســـيوس مظلـــوم ، مـــن تـــاريخ الحـــروب المقدســـة في المشـــرق المـــدعوة حـــرب الصـــليب ، م1،ترجمـــة الســـيد كيريـــو كيريـــو ، مكســـيموس مظلـــوم ، طبـــع باورشـــليم 1865،ص9 ؛ العـــريني ، الشـــرق الاوســـط

والحـــروب الصـــليبية ، ج1،ص149 ؛ عاشـــور ، الحركـــة الصـــبيبة ، ج1،ص131 .
عطا ، الترك في العصور الوسطى ، ص70 .
العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج1،ص149-150 .
عبيد ، روما وبيزنطة ، ص82 .
المصدر نفسه ، ص82 .
(**)بــوي Puy : مدينـــة فرنســية بــاعلى نهــر الالــوار (المطــوي ، الحــروب الصبيبة في المشرق والمغرب ،ص47) .
(***) كلير مونت : وهـــي مدينـــة تقـــع جنـــوب فرنســـا اجتمـــع فيهـــا البابـــا بحشد من رجال الـــدين الفرنســـيين الـــذين دعـــوا الى الحـــرب الصـــليبية (قاســـم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص9) .
(****) سان جيل : وهـــي مدينـــة فرنســـية صـــاحبها ريمـــون وهـــو مـــن كبـــار رجـــال الاقطـــاع في الغـــرب والمؤيـــدين للبابويـــة (يوســـف ، جوزيـــف نســـيم ،دراســـات في تـــاريخ العلاقـــات بـــين الشـــرق والغـــرب في العصـــور الوسطى ، مطابع العصافرة ، الاسكندرية 1988 ، ص28) .
(*****) ديـــر كلـــوني : انشـــاه ولـــيم الاول ســـنة 910م واصـــبح مركـــزا لمؤسسات كنيســـة ضـــخمة (العـــريني ، الشـــرق الاوســـط والحـــروب الصـــليبية ،ج1،ص92) .
(6) يوســـف ، دراســـات في تـــاريخ العلاقـــات بـــين الشـــرق والغـــرب في العصور الوسطى ، ص28-29 .

فـــاهتزت مشـــاعر البابـــا اوربـــان الثـــاني عنـــدما سمـــع احـــوال المشـــرق وان الســـلاجقة اســـتولوا علـــى اراضـــي بيزنطـــة واصـــبح المســـيحيون خاضـــعين للاتـــراك (1) . فســـارع الى عقـــد المـــؤتمر في تشـــرين الثـــاني (1095م) في مدينـــة كليرمونـــت (2) وقـــد حضـــر نحـــو (310) اعضـــاء مـــن الاســـاقفة

والقساوسة وعدد كبير من سكان الجهات المجاورة والقى البابا اوربان الثاني خطابا دعى فيه الناس بالتطوع للذهاب الى بيت المقدس (3) ومساعدة البيزنطين بما يقاسيه المسيحيون من معاملة قاسية على يد السلاجقة الاتراك (4) كما يزعم فقال(5) ((ان مملكة الاغريق قد مزقوها ففقدت اراض من السعة بحيث لا يمكن قطعها بمسيرة شهرين ، فعلى من اذن تقع مهمة الانتقام لهذه الخطايا وتحرير هذه الارض ان لم تكن عليكم انتم...)).

ووجه البابا دعوته الى الفرسان في فرنسا للتخلص من اعمال العنف التي يقومون بها بسبب ضعف السلطة المركزية وانعدام القانون في فرنسا فاستجاب الفرسان باعداد كبيرة لنداء البابا (6) . كما وجه دعوته الى الفقراء والمحتاجين لتحريرهم من العوز(7) .

وكذلك وجه دعوته الى الموسرين ايضا ، طالبا من الجميع الابتعاد عن مشاحناتهم في اوربا وان يوجهوا جهودهم ضد المسلمين في الشرق حيث يرعاهم الله ويبارك جهودهم ويغفر ذنوبهم (8) ، وقد ايد البابا جميع الحاضرين (9) ، رغم جهل السواد الاعظم فهم بحقيقة هذه الدعوة ، وحقيقة الدوافع المحركة لها .

الشاتري ، تاريخ الحملة الى القدس ، ص31 .

مونرو ، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب ، ص23 .

حتي ، فيليب ، تاريخ لبنان ،ط2،ترجمة د. انيس فريحة ، دار الثقافة ، بيروت 1972،ص343 .

باركر ، الحروب الصليبية ، ص23 .

Krey ,A.Anegiected passage in the Gesta (The crusadeando ther Historical essays presented to Dana Munro New York ,1968) .

العلي ، مجتبا ، مجلة النبا ، الحروب الصليبية وصكوك الغفران ، العدد 45 ، ايار 2000-صفر 1421هـ،ص6 .
عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص265 .
عاشور ، الحركة الصليبية ، ص132-133 .
العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص154 .

وقبل انتهاء خطاب البابا جاء اديمار دي مونتيل(*)اسقف بوي فركع امام البابا ليكون اول المتطوعين (1) .
لقد كان مطلب بيزنطة يختلف عن اهداف الحركة الصليبية اذ سعت بيزنطة الى ارجاع الاراضي التي استولى عليها السلاجقة والتي كانت خاضعة لنفوذهم لذلك طلب الكسيوس في مؤتمر بياكنزا جنودا مرتزقة تعمل تحت امرته لقتال السلاجقة بينما كان ظاهر الحركة بالنسبة للغرب هو تحرير بيت المقدس (2) .
و لم يكن الكسيوس اول من طلب مساعدة الغرب اذ سبقه بعض الاباطرة من قبل مثل ميخائيل السابع الذي طلب مساعدة الغرب لحماية الامبراطورية البيزنطية اما طلبه المساعدة من الغرب للوصول الى الاراضي المقدسة فهو امر مستبعد (3) . وبعد نهاية الاضطراب التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية كان هناك سؤال يطرح نفسه ، هل ان الكسيوس يريد التفاوض مع الشعوب المنتصر عليها ، وانه يحتاج الى طلب معاونة الغرب الاوربي ؟ وتتضح اهمية هذا السؤال اذا كان الامبراطور البيزنطي قد طلب من دول الغرب التدخل فيعتبر هو المعول على الحملة الصليبية الاولى (4) .
واختلف المؤرخون حول الخطاب الاصلي الذي ارسله الكسيوس سنة (1088م) الى الكونت روبرت الاول كونت فلاندرز(**) Robert II count of Flandrs في حصوله على المساعدة من الغرب لحماية

القسطنطينية من السلاجقة وايقاف توسعاتهم ثم الاستيلاء على بيت المقدس (5) .

(*) اديمار دي مونتيل : اسقف لابوي الذي عينه البابا اوربان الثاني الرئيس الروحي للحملة بسبب حكمته وحسن تدبيره للجيش (الشارتري ، تاريخ الحملة الى القدس ،ص37) .

حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ، ص51 .

عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ،ص266 .

يوسف ، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،ص19 .

عمران ، محمد سعيد ، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار النهضة العربية ،بيروت 1981 ،ص262 .

(**) روبرت الاول : امير الاراضي الواطئة وبلاد الفلمنك احدى مقاطعات فرنسا وهو من كبار رجال الاقطاع في فرنسا وامتدت مدة حكمه من سنة 1071،1093 وحظيت بلاده بمكانة مرموقة من الناحيتين السياسية والاقتصادية (يوسف ، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،ص12) .

(5) يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص53 .

ان هذا الخطاب اثار الجدل بين المؤرخين حول نوع المساعدة اهي مساعدة الجيش البيزنطي ضد التوسع السلجوقي ام الدعوة للاستيلاء على الاراضي المقدسة ؟ وكان الكسيوس قد طلب مساعدة الجيش البيزنطي في مؤتمر بياكنزا وكلير مونت كما ذكر سابقا (1) .

لكن خطابه الى امير الاراضي الواطئة فيه من المبالغة حول ما فعله الاتراك السلاجقة ببيزنطة ، اضافة الى ما فيه من مغريات مادية بما موجود في القسطنطينية(2) وقد نفى هذا الخطاب كل من رنسيمان

وفـــازيليف Vasiliev بـــان الامبراطـــور لم يرســـل خطابـــا الى الاراضـــي الواطئة (3) .

ويمكـــن معرفـــة اذا مـــا كانـــت نصـــوص الرســـالة قـــد زورت ، وقـــد اثبتـــت الدراســـات الحديثـــة ان الرســـالة قـــد زورت بالترجمـــة لفســـح المجـــال امـــام الغرب الاوربي للتدخل في املاك بيزنطة(4) .

واضـــاف المؤرخـــان رنيســـمان وفـــازيليف Vasiliev بـــان اســـلوب كتابـــة الخطـــاب لايتفـــق مـــع العـــادات والتقاليـــد المتبعـــة في الدولـــة البيزنطيـــة ولم يكتـــب الخطـــاب في ســـنة 1088 وانمـــا كتـــب في ســـنة 1098م في غـــرب اوربا (5) . ولم يـــذكر المؤرخـــان اللاتينيـــان فوشـــيه والمؤلـــف المجهـــول اللـــذان عاشا في تلك الحقبة بـــان الكســـيوس قـــد طلـــب تعـــاون الغـــرب للقيـــام بحملـــة على بيت المقدس (6) .

يوســـف ، دراســـات في تـــاريخ العلاقـــات بـــين الشـــرق والغـــرب في العصـــور الوسطى ، ص13 .

عمران ، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ،ص263 .

يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، ص53 .

عمران ، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص263 .

يوســـف ، العـــرب والـــروم واللاتـــين في الحـــرب الصـــليبية الاولى ، ص53-54 .

يوســـف ، دراســـات في تـــاريخ العلاقـــات بـــين الشـــرق والغـــرب في العصـــور الوسطى ، ص14 .

تهيئة الجيوش والزحف الصليبي نحو القسطنطينية

لقـــد تحـــول طلـــب الكســـيوس كـــومنين مـــن البابويـــة لمســـاعده جيوشـــه الى دعـــوة للحـــروب الصـــليبية الـــتي اعلنـــها اوربـــان الثـــاني ســـنة (1095م) في مؤتمر كليرمونت ولبت دعوته جمـــوع غفـــيرة مـــن العامـــة ومـــن رجـــال الـــدين والامـــراء والاقطـــاعيين والفرســـان وبـــذلك تكونـــت الحملـــة الصـــليبية الاولى ســـنة (490هــــــ-1096م) (1) والـــتي قســـمت الى قســـمين القســـم الاول حملة العامة والقســـم الثـــاني حملـــة الامـــراء والاقطـــاعيين وقـــد حشـــد اوربـــان الثاني في القسم الاول خمســـة جيـــوش مـــن العامـــة بعـــد ان طلـــب البـــاب مـــن الاساقفة ان يدعوا للحرب الصـــليبية حيـــث ظهـــرت جماعـــة مـــن الـــدعاة كـــان من بينهم بطرس الناسك(*) الـــذي كـــان لـــه تـــاثيرا كـــبيرا علـــى عامـــة النـــاس وقـــد طـــاف فرنســـا واللـــورين (2) واســـتجاب لـــه الفقـــراء والمعـــدمون والمغـــامرون والفلاحـــون والتجـــار الـــذين يبحثـــون عـــن اســـواق لبضـــائعهم وذلك بسبب الظروف المعاشـــية القاســـية الـــتي يعيشـــها النـــاس وقـــد تعرضـــت معظـــم اراضـــيهم الى غـــزوات القبائـــل البربريـــة وذهبـــت ارواح كـــثيرة مـــن النـــاس بســـبب الحـــروب بـــين امـــراء الاقطـــاع وتعرضـــت ممتلكـــاتهم للنـــهب والتخريـــب اضـــافة الى النكبـــات الطبيعيـــة الـــتي عمـــت اوربـــا (3) . لـــذلك اســـتجاب هـــؤلاء المعـــدمون للـــدعوة الصـــليبية المقدســـة لتضـــمن لهـــم غفـــران الـــذنوب ودخـــول الجنـــة (4) كمـــا يعتقـــدون ، وبـــذلك تكونـــت خمســـة حشـــود غـــير نظاميـــة مـــن العامـــة ســـارت في اراضـــي المجـــر البلقـــان باتجـــاه القســـطنطينية فقامـــت بعمليـــات النـــهب والســـلب والاعتـــداء علـــى الســـكان المحليين الآمنين لذلك رد عليهم الهنغاريون(5) .

---

(1) عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1،ص131-132 .

(*) بطـــرس الناســـك : داعيـــة الحملـــة الصـــليبية الاولى ولـــد ســـنة (1050م) وتوفي في 8تموز (1115م) بـــالقرب مـــن منطقـــة هـــوي ، ولقـــد ذكـــر الكـــثير من القصص الخيالية حول بداية حياتـــه وقـــد عـــرف بملابســـه الرثـــة وامتطائـــه

لحماره اثنـــاء تجوالـــه في اقطـــار اوربـــا يـــدعو الى شـــن الحـــرب الصـــليبية ضـــد المسلمين ، انظر :

Micropaeda , The Encyclopededia Americana (U.S.A 1962) vol.21 P.661 ؛ الجنـــابي، د. طلـــب صـــبار ، امـــارة انطاكيـــة، دراســـة في علاقاتهـــا السياســـية في القـــرى المجـــاورة ، اطروحـــة دكتـــوراه ،جامعة بغداد 1996 ، ص98 .

الحميـــدة ، ســـالم ، الحـــروب الصـــليبية ،ج1، دار الشـــؤون الثقافيـــة ، بغـــداد 1990، ص59-60 .

ديورانت ، ول ، قصة الحضارة ،ج4،ص18 .

ماير ، هانس ابرهار ، تـــاريخ الحـــروب الصـــليبية ، ترجمـــة عمـــاد الـــدين غـــانم ، منشورات مجمع الفاتح للجامعات ، 1990،ص59 .

العلـــوي ، مجلـــة النبـــا ، الحـــروب الصـــليبية وصـــكوك الغفـــران : العـــدد 45 ، ص7 .

وقد ابيد ثلاث جيـــوش قبـــل الوصـــول الى القســـطنطينية وذلـــك لانهـــم ســـلكوا سلوكا غـــير نظـــامي فكـــانوا يـــدمرون ويحرقـــون القصـــور في ضـــواحي المـــدن التي في طريقهم اما القوتـــان الباقيتـــان فكانـــت القـــوة(1) الاولى بقيـــادة ولتـــر المفلـــس (*) الـــذي بـــدأ رحلتـــه ســـنة (490هــــ في 8اذار 1096م) فعـــبر هنغاريا مع مجموعة كبيرة من الجنـــود المشـــاة وعـــدد غـــير قليـــل مـــن الفرســـان وقـــد منحـــه ملـــك هنغاريـــا (**) ســـوقا عامـــة لشـــراء احتياجـــاتهم ثم واصـــل مسيره الى بلغراد(***) بدون أي مشكلة (2) .

و لم يتلـــق والتـــر تعليمـــات تتعلـــق بـــالغزو فارســـل رســـلا إلى حـــاكم بلغاريـــا يبلغه بوصوله فارســـل حـــاكم بلغاريـــا وفـــدا إلى إمبراطـــور القســـطنطينية يبلغـــه بوصول والتر(3) . وعندما كـــان والتـــر في بلغـــراد طلـــب مـــن دوقهـــا تجهيـــزه بالأقوات فلم يستجب لـــه و لم يســـتطع والتـــر الســـيطرة علـــى اتباعـــه الجـــائعين فقـــاموا بعمليـــات النـــهب والســـلب في بلغـــراد وقـــام القائـــد المجـــري بـــإحراق

الكنائس الصغيرة فاحترق عدد كبير من اتباع والتر وقد ترك والتر بعض المتهورين منهم ثم عبر الى ستراليشيا (****) Stralicia (صوفيا) وهي اكبر مدن داشيا المتوسطية . حيث أعطاه حاكمها سوقاً لشراء السلع التي يحتاجونها وباسعار زهيدة بعد ان قدم له شكوى على الاضرار والخسائر التي الحقها في بلغراد(4) .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص199-203-204-205؛ مايز ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص70 .

(*) والتر : وهو رجل من اصل نبيل اضافة الى انه كان محاربا شجاعا (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1 ، ص177) .

(**) هنغاريا : هي بلد مسيحي في ظل القديس ستيفن الاول 1138م واستطاع ملوكها ومنهم لاديسلوس ارجاع الارض المفقودة بمساعدة البابا غريفوري الذي اصبح حاكما مطلقا لهنغاريا اسميا (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1 ، ص178) .

(***) بلغراد : وهي يوجوسلافيا عاصمة يوغسلافيا وصربيا تقع على نهر الدانوب والساف اسست سنة 1863 واعيد تنظيمها سنة 1905 ثم سنة 1954(غربال ، محمد شفيق واخرون ، الموسوعة العربية الميسرة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، (بيروت 1987)) .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص177-178 .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص183 .

(****) ستراليشيا : هي صوفيا الحديثة التي كانت تعرف تريادتيزا في ظل الحكم البيزنطي (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص179) .

(4) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص179 .

وقــــد أرســــل هـــذا الحــــاكم الإدلاء لإيصــــالهم إلى الإمبراطوريــــة البيزنطيــــة وعندما وصــل والتــر الى القســطنطينية ، طلــب مــن الإمبراطــور البيزنطــي ان يبقى جيوشــه قــرب المدينــة والأســواق ليشــتري الجــيش احتياجــاهم بعــد ان مثل أمام الإمبراطور وكــان ذلــك لحــين مجــيء بطــرس ، الــذي باشــر والتــر الحملة تنفيذا لأوامره (1) .

في ســنة (490هـــــ/20نيســان 1096م) ســار بطــرس علــى راس جمــوع من اتباعه الذين بلغ عــددهم أربعــين الفــا حيــث جمعهــم مــن قبائــل وعــروق وشــعوب مختلفــة مخترقــا ألمانيــا حــتى وصــل الى الحــدود الهنغاريــة البيزنطيــة (2) وقــد أرســل بطــرس رســالة الى ملــك هنغاريــا طالبــا منــه الســماح بالدخول فوافق الملــك علــى دخــولهم وقــدم لهــم ســكان ذلــك البلــد المــؤن وبأســعار مناســبة وعنــدما ســار بطــرس إلى مدينــة ســلمن(*) Silmin وعلموا بالكارثة التي حلت باتبــاع والتــر في هــذه المدينــة علــى أيــدي البلغــار حين مــرورهم بهــا وذلــك حــين شــاهدوا الغنــائم والأســلحة معلقــة علــى الأسوار مما اثــر غضــب بطــرس واتباعــه فقــاموا بمذبحــة مروعــة قتــل فيهــا معظم سكان المدينــة واغرقــوا القســم الآخــر في النــهر ثم حملــوا غنــائم هــذه المدينة من المؤن والحيوانات عنــدما سمعــوا ان ملــك هنغاريــا قــد جمــع قــوات عسكرية ليثار لهذه المذبحــة مــن بطــرس الــذي عــبر مــع جيشــه إلى الجانــب الثاني من المدينة وعسكروا عنــد بلغــراد فوجــدوها خاليــة وكــان ســكانها قــد هربوا مذعورين إلى الجبال (3) .

ومن بلغراد ســار بطــرس واتباعــه حــتى وصــلوا إلى مدينــة نــيش(**) حيــث ينتظــرهم قائــد بيزنطــي علــى راس جــيش قــوي ليمنــع وقــوع اعتــداءات بطرس واتباعه (4) .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص179 .

عاشور ، الحركة الصليبية ، ج1، ص138 .

(*) سلمن Slimin : تقع على نهر السيف قرب بلغراد وتسمى ماليفيلا (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص178) .

(3) الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص180 .

(**) نيش Nish : وهي مدينة تقع على نهر مورافا في قلب شبه جزيرة البلقان (يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص157) .

(4) ويست ، انتوني ، الحروب الصليبية ، ترجمة شكري محمود نديم ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بغداد -نيويورك 1967 ، ص44 .

وكانت مدينة نيش محصنة لها أسوار وأبراج ومحمية بقوة من الجيش وقد عسكر بطرس واتباعه بالقرب منها وعندما وجدوا قلة في المؤن طلب بطرس من حاكم المدينة ان يزوده بالمؤن حيث أجابه الحاكم بتقديم الرهائن لكي لا يلحق ضررا بمواطني المدينة فقبل بطرس هذا الشرط وقدمت لهم مؤن وفيرة وباسعار مناسبة وقد تبادلوا الأحاديث الودية بعد ان انتهى الليل وأعيد الرهائن حيث تحرك الجيش للرحيل وفي تلك الليلة احدث بعض المشاغبين مشكلة عندما كانوا يتاجرون مع أحد البلغار (1) ، حيث قام المشاغبون بإشعال النيران في بيوت القرويين بمن فيها من البشر ثم قاموا بعمليات سلب ونهب للمدينة حيث هاجم البيزنطيون جيش بطرس وقتلوا الكثير من رجاله واسروا عددا منهم وحصلوا على الأموال التي جمعها بطرس من أغنياء غرب أوربا (2) . وهذه الرواية انفرد الصوري بذكرها ومنها ان بطرس واتباعه لم يكن أمامهم الا ان يبحثوا عن سبب هذه الكارثة وإزالة الشجار بينهما فارسل بعض الحكماء والمسؤولين الى حاكم مدينة نيش وأعيانهم للتحري عن الأسباب التي أدت الى سفك الدماء وعندما عرفوا الأسباب التي أدت الى هذه الكارثة وحاولوا التوصل إلى اتفاق بين الطرفين حدث

اضطراب بين الجـــانبين قامـــت بـــه جماعـــة مـــن أعـــوان بطـــرس للانتقـــام مـــن الأضرار التي لحقـــت بهـــم حيـــث أرســـل الى بعـــض المســـؤولين لتهدئـــة الوضـــع لكنهم لم يجدوا نفعـــا فقـــد وجـــد الرســـل الـــذين أرســـلوا الى الحـــاكم انهـــم لم يستطيعوا تهدئـــة الانفعـــالات بـــين النـــاس فتخلـــوا عـــن محـــاولاتهم ورجعـــوا إلى المعسكر ليساعدوا بطرس الناسك في قمع الشغب (3) .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص181 .
قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص118 .
الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1 ، ص180-181 .

وقد منـــع بطـــرس مســـاعدة المشـــاغبين حيـــث فتحـــوا ابـــواب المدينـــة وقتـــل خمسمائة رجل امـــا البقيـــة فتفرقـــوا وقـــد تهيـــا جـــيش بطـــرس للقتـــال عنـــدما شـــاهدوا هـــذا المشـــهد وأحيطـــت قـــوات بطـــرس بقـــوات البلغـــار وحـــدثت مجزرة اكثر مـــن ســـابقتها لـــذلك لم تســـتطع قـــوات بطـــرس الصـــمود فهربـــوا امام قوات البلغار وقد تمزقـــت صـــفوفهم وفقـــدوا كامـــل ثـــروتهم كمـــا فقـــدوا العربة التي تحمـــل جميـــع المـــؤن والامتعـــة وحصـــل البلغـــار علـــى العديـــد مـــن الاسرى من النســـاء والاطفـــال و لم يـــنج مـــن المـــوت احـــد الا الـــذين اختبـــؤا في اعماق الغابات وبعد ثلاثة ايـــام مـــن التشـــتت حـــاول بطـــرس جمـــع اتباعـــه بصعوبة(1) .

انـــزعج الامبراطـــور البيزنطـــي مـــن تصـــرفات اتبـــاع بطـــرس واصـــدر اوامـــره عنـــدما وصـــلوا الى صـــوفيا بواســـطة احـــد مندوبيـــه بـــان لا يبقـــى الصـــليبيون اكثر من ثلاثة ايام في كل مدينـــة بيزنطيـــة يمـــرون بهـــا نتيجـــة لمـــا احـــدثوه مـــن اضطرابات في سلمن ونيش ووعد الامبراطور بتجهيزهم بالمؤن (2) .

وفي سـنة (490هـ واوائل اب سنة 1096م) وصل اتباع بطرس الناسك الى اسوار القسطنطينية وكان بانتظاره والتر المفلس واتباعه (3) . واتحد الجيشان بقيادة بطرس الناسك (4) ثم توجه الى القسطنطينية تبعا لدعوة الامبراطور حيث مثل امامه فرحب به واكرمه وحثه على الانضباط واحترام حقوق السكان وتقديم النصائح للصليبيين (5) .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص182 .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص187 .

عاشور ، الحركة الصليبية ، ج1،ص138 .

باركر ، الحروب الصليبية ، ص26 .

فلبجي ، قدري ، صلاح الدين الايوبي : مطابع شركة الطباعة الحديثة ، بيروت 1966 ،ص54 .

وامر الامبراطور البيزنطي بتزويد قوات بطرس بالاقوات وطلب الكسيوس من الصليبيين التجمع قرب البسفور والانتظار لحين مجيء القوات النظامية الغربية(1).

وذكر البعض ان جوتييه سانز افوار هو اول من وصل الى القسطنطينية وليس بطرس الناسك كما تشير روايات اخرى (2) .

كانت جموع العامة خارج أسوار المدينة حيث عاثوا فسادا بالقرى المجاورة اذ قاموا بنهبها وسلبوا من الأهالي قوتهم وأمتعتهم وحتى الكنائس لم تسلم منهم(3) .لذلك استخدم الإمبراطور البيزنطي سياسة معينة لحماية إمبراطوريته من هؤلاء الذين لا يعرفون النظام وفي سنة (490هـ/ 7 اب-1096م) قام بنقلهم الى شاطئ البسفور والتخلص من شرورهم(4) . واستمرت حملة العامة بعمليات النهب والسلب والاعتداء على القرى والمزارع القريبة منهم فطلب منهم الإمبراطور

البيزنطي البقاء في قلعة كيفيتوت(*) Civitot ، و لم يكن الإيطاليون والألمان على وفاق مع الفرنسيين و لم يعترفوا بسلطة بطرس الناسك عليهم لذلك انفصلوا في نيقوميديا(**) واتخذوا رئيسا لهم اسمه رينالد (5) .

وان الامبراطور البيزنطي كان يزودهم بكل ما يحتاجون اليه من التموين لكن تلك الجموع الصليبية لم تبتعد عن اعمال الشغب ضد المدن المحيطة بمعسكر كيفيتوت حيث بداوا بالاعتداء على السلاجقة الاتراك في نيقيه(6) .

ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص71 .

ينظر في ذلك ، مؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1958 ، ص19؛ زابوروف ، الصليبيون في الشرق ،ص57 ؛ حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ، ص58 .

ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص72 .

يوسف ، العرب والروم واللاتين ،ص161 .

(*) كيفيتوت : (كبيوتوس) هو معسكر بيزنطي مهجور كان مخصصا للمرتزقة الانكليز (ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص72) .

(**) نيقوميديا : وهي عاصمة بيثينيا (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1 ، ص766) .

مؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة ،ص19، 20 .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1 ، ص186 .

لكن السلاجقة الاتـــراك ، لمـــا علمـــوا بنوايـــا تلـــك الجمـــوع الصـــليبية حيـــث بـــداوا يعـــدون العـــدة ويخططـــون ويضـــعون الكمـــائن في طريـــق المعســـكر الصليبي حيث نيقيه للقضـــاء علـــى كـــل مـــن يمـــر بـــالطريق المـــؤدي الى نيقيـــه وكما عـــرف الســـلاجقة بحـــب الفـــرنج للمـــال (1) فقـــد ارســـلوا الجواســـيس الى معسكر الصليبيين لنشـــر خـــبر بـــان القـــوات الألمانيـــة الـــتي انفصـــلت عـــن قوات بطرس قد احتلت نيقيه وانهـــا تعمـــل علـــى تقســـيم الغنـــائم بـــين افرادهـــا (2) فاتجهت جميـــع الجيـــوش الصـــليبية نحـــو نيقيـــه حيـــث وقعـــوا في المخطـــط الـــتي وضـــعها لهـــم الأتـــراك وقبضـــت علـــيهم الجيـــوش الســـلجوقية وهزمتـــهم وراح ضحيتها اعداد كبيرة من القتلى (3) .

ولم ينجو من هذه المذبحـــة غـــير بطـــرس وعـــدد قليـــل مـــن اتباعـــه الـــذين لاذوا بالفرار الى القسطنطينية (4) .

وكما وصلت الاخبـــار الى الامبراطـــور البيزنطـــي فارســـل قـــوة صـــغيرة لانقـــاذ ما تبقى من الجمـــوع الصـــليبية وبقـــوا في حمايتـــه لحـــين وصـــول حملـــة الامـــراء (5)-.-

---

ويست ، الحروب الصليبية ، ص49-50 .

رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج1،ص191 .

عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ،ص92 .

مايer ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص72 .
رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص193 .

ب- حملة الامراء والمازق الصليبي – البيزنطي

اما الجانب الثاني من الحملة الصليبية الاولى وهي حملة الامراء التي تكونت من خمسة جيوش فكانت اتجاهات الحملة مختلفة وتنظيمها واعدادها فكان يقودها قواد ذوي كفاءات ولكل منهم طابعه الخاص به(1) فكان الجيش الاول بقيادة جودفري(*) البولوني Godfrey de Bouillon يرافقه اخيه بلدوين البولوني(**) (2) وكان الجيش الثاني تحت قيادة روبرت (***) دوق نورماندي Robert Duke of Normandy وزوج اخته ستيفن كونت بلوا Stephen of Blois (3) .

اما الجيش الثالث كان بقيادة بوهمند(****) النورماني وكان الجيش الرابع تحت قيادة ريمون الرابع كونت تولوز(*****) Raymond iv of Toulouse وتالف جيشه من فرسان جنوب فرنسا والبروفنسال وكان معه اديمار اسقف بويه(******) المندوب البابوي (4) اما الجيش الخامس كان تحت قيادة هيوكونت فيرماندوا(*******) Hugh count of vermandois وهو شقيق ملك فرنسا فيليب الاول(5) .

---

(1) الحميدة ، سالم ، الحروب الصليبية ، ط،مطابع دار الشؤون الثقافية ،بغداد 1990،ص65

(*) جودفري البولوني : هو امير لوثرنميا وقائد الجيش الذي جمعه من اللورين وشمال المانيا (الحميدة ، الحروب الصليبية ،ص95) .

(2) عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ،ص98 .

(**) بلدوين البولوني : وهو مؤسس امارة الرها الصليبية واخو جودفري البولوني (عاشور ، الحركة الصليبية ، ص182) .

(***) روبـــرت دوق نورمانـــدي : قائـــد قيـــادة الفرســـان غـــرب فرنســـا ونورمانـــدي اضـــافة الى الفرســـان الانكليـــز (قاســـم ، الحـــروب الصليبية ، ص120) .

(3) قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ،ص120 .

(****) بوهمنـــد : ابـــن روبـــرت جويســـكار النورمـــاني وهـــو اول قائـــد نورماني (المؤلف المجهول ، اعمال الفرنجة ،ص23) .

(*****) ريمـــون كونـــت تولـــوز : اول مـــن تطـــوع مـــن الامـــراء في مـــؤتمر كلرمونت ولـــه تـــاريخ حافـــل في محاربـــة المســـلمين (يـــوف ، علاقـــات بـــين الشرق والغرب ،ص58) .

(******) اديمـــار ، اســـقف ، المنـــدوب البـــابوي في الحملـــة الصـــليبية الاولى (باكر ، الحروب الصليبية ،ص27) .

(4) قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص1201-121 .

(******) هيوكونت فرمانـــدو : هـــو اصـــغر ابنـــاء هنـــري الاول واصـــغر قائـــد وصل بيزنطة واخو فليـــب الاول ملـــك فرنســـا وكـــان جيشـــه اصـــغر الجيـــوش (جيش ، الحرب الصليبية الاولى ،ص65) .

(5) Anna Comnene: Alexiad X ,Vol,10 ,p.252 .

وكان اول من رحـــل نحـــو القســـطنطينية هـــو هيوكونـــت فرمانـــدوا علـــى راس جيش صـــغير مـــن الفرســـان وبعـــض اتباعـــه وهـــو اول مـــن وصـــل اراضـــي بيزنطـــة وقبـــل توجهـــه الى القســـطنطينية ارســـل وفـــدا خاصـــا الى الامبراطـــور البيزنطي يطلب من الامبراطـــور ان يقابلـــه بموكـــب احتفـــالي بمـــا يلائـــم منصـــبه الملكـــي (1) . لكـــن عاصـــفة بحريـــة واجهتـــه في الطريـــق حطمـــت اســـطوله الصغير الذي كان قـــد اجـــره ليختـــرق بـــه البحـــر الادريـــاني فغرقـــت الســـفن ومن معه مـــن الاتبـــاع واســـتطاع احـــد ضـــباط البحـــر انتشـــاله مـــن الغـــرق وجلبـــه الى يوحنـــا(*) فاكرمـــه وارســـله الى القســـطنطينية في حراســـة كبـــار الموظفين (2) .

وقد استقبله الامبراطور البيزنطي استقبالا واكرمه واغدق عليه الهدايا لكنه قلص من حرية حركته ومنعه من الاتصال بالحجاج الذي امتلا به طريق الامبراطورية البيزنطية فقيد حريته ليكون جاهزا لاداء القسم (3) . اما حملة جودفري فقد اختار الطريق الذي يخترق بلاد المجر وعندما وصل حدودها ارسل الى ملكها سفارة يطلب منه السماح له اجتياز بلاد المجر فاذن له ملكها بعد اجتماعه مع جودفري وترك اخيه وزوجته واطفاله رهينة عنده وذلك لان بلدوين(**) كان اخطر فردا في جيش جودفري وتعهد ملك المجر بتزويده بالاقوات اللازمة (4) .

فاجتياز الصليبيون بلاد المجر بدون مشاكل وعندما وصل الصليبيون الى مدينة سلمن عند حدود بيزنطة اطلق حاكم المجر الرهائن الموجودين عنده فواصل جودفري واتباعه المسير فمروا في بلغراد وواصلوا المسير الى مدينة نيش فحصلوا على المؤن من حاكمها وقد وصلت اليه اخبارا بان هيو واتباعه قد

---

(1) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص207-208 .

(*) يوحنا : ابن الامبراطور الكسيوس كومنين (رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص209) .

(2) Anna Comnenax ,Vol,10 ,pp.252 –253 : Mayer , Hans eberhard , The crusades ,traslated by John Gilling nam oxford university paris 1972,p.48 .

(3) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص209 .

(**) بلدوين : اخو جودفري البولوني الذي هجر الدراسات الكنيسية للتخصص بالعمل العسكري واصبحت زوجته التي رافقته احدى شهيرات الحروب الصليبية (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص198-199)

(4) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص74 .

حصلوا على الامــوال والهــدايا مــن الامبراطــور البيزنطــي لكــن انبــاءا اخــرى وصــلت اليــه ان هيــو قــد اســره الامبراطــور البيزنطــي (1) . فغضــب جودفري وبدء ينتقم من اهــل الــبلاد الــتي يمــر بهــا فــانهزم اكثريــه النــاس الى القســطنطينية للاحتمــاء بــالامبراطور فعنــدما سمــع بــذلك ارســل اثــنين مــن الرسل الفرنسين الــذين يقومــون بخدمتــه الى جــودفري يطلبــون منــه التوقــف عن اعمــال الخــراب الــتي قــام بهــا في المــدن التابعــة للامبراطوريــة البيزنطيــة (2) .

وكان الامبراطور قد اطلــق ســراح هيــو واعتــذر لــه وذلــك ليجذبــه اليــه وطلــب منــه القســم والخضــوع لاوامــره ثم تحــرك جــيش جــودفري باتجــاه القســطنطينية (3) . وكــان الامبراطــور البيزنطــي يعتقــد ان جــودفري وجيشه جاء لمساعدة بيزنطــة ضــد المســلمين وطــرد الســلاجقة مــن الاراضــي التي احتلوها في اســيا الصــغرى وكــان الامبراطــور يــرى ان جــودفري مشــابه لرســل باليــل (4) عنــدما اســتعان بــه الامبراطــور البيزنطــي رومنــوس ضــد الســلاجقة لكنــه اراد ان يســتغل هــذا الــنزاع بــين بيزنطــة والســلاجقة في انشاء دولة له في الاناضول وكما موضحا في الفصل الاول(5) .

وان الاخــتلاف بــين جــودفري ورســل باليــل ان جــودفري اكثــر جيشــا وعتادا من سابقه لــذلك يكــون اكثــر نفعــا للامبراطوريــة في تحقيــق مصــالحها لكــن الامبراطــور ادرك بــان قــوة جــودفري يمكــن ان تكــون خطــرا يهــدد مصالحها كما فعــل رســل باليــل بقوتــه وبطشــه في احــتلال اراضــي بيزنطــة فلــم تكــن الامبراطوريــة البيزنطيــة قــد غفلــت عنــه فــاراد الامبراطــور ان لا تعاد مأساة رسل باليل .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ص184-185 .

الحريــري ، ســيد علــي ، الاخبــار الســنية في الحــروب الصــليبية ، المطبعــة العمومية ، مصر 1317 ،ص11.

الحريري ، الاخبار السنية في الحروب الصليبية ،ص11 .
عاشور، الحركة الصليبية ، ج1،ص148-155 .
عاشور، الحركة الصليبية ، ج1،ص148-155 .
لذلك اتبع الامبراطور البيزنطي شئ من القوة مع جودفري وهو ان يكون تابعا له من خلال قسم يمين الولاء وارجاع الاراضي التي يستولي عليها المسلمون وكان هذا هو هدف الامبراطور لتحديد العلاقة بينه وبين الصليبيين (1) .
وعندما وصل جودفري الى اسوار القسطنطينية سنة (490هـ-1096م) وارسل اليه الامبراطور هيو فرماندوا لكنه رفض مقابلته وقسم يمين الولاء للامبراطور لانه يكره الاستجابة لدعوته ويخشى التعامل معه لانه لم يرسل اليه ممثلين عنه(2).
ثم بدا يعاتب هيو باستهزاء : ((انت قدمت من بلادك باعتبارك سيدا تملك ثروة هائلة وجيشا كبيرا اراك تنحدر بنفسك من هذه المكانة السامية التي كنت تتمتع بها الى مصاف العبيد والاقتان)) . فاجابه هيو : ((كان يجب علينا البقاء في ديارنا ولا نتدخل في شؤون غيرنا ولكن طالما بلغ بنا الامر الى هذا الحد فقد امسينا في حاجة ملحة الى حماية الامبراطور لنا وسوف تتطور الامور في غير صالحنا اذا لم نرضخ لمطالبه))(3) .
وقد ارسل جودفري اعتذاره للامبراطور عن طريق رسل عنه فخاف الكسيوس من وصول بوهمند عدوه القديم وتاثيره على جودفري في اداء القسم اضافة الى تكدس الجيوش الصليبية خارج اسوار القسطنطينية والقيام باعمال الشغب وان علاقته متوترة مع جودفري منذ ارساله هيو ودعوته لزيارة الامبراطور لاداء القسم لذلك قام بالضغط عليه فقطع المؤن عن جودفري واتباعه فهاجم بلدوين بيزنطة ومدن العاصمة حيث

قـــام الامبراطـــور بنقلـــهم الى مدينـــة بـــيرا(*) Perd لتكـــون معســـكرا لهـــم (4)
.

عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1،ص148-149 .
الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص206 .
يوسف ، العرب والروم واللاتين ،ص185 .
(*) بيرا Pera : وهي احـــدى المـــدن البيزنطيـــة الواقعـــة علـــى القـــرن الـــذهبي (يوسف ، العرب والروم واللاتين ،ص186) .
(4) حبشي ، الحرب الصليبية ، ص72 .

ان اسباب امتناع جودفري عن قسم يمين الولاء هي :
ان جودفري لم يقسم يمين الـــولاء للامبراطـــور البيزنطـــي لانـــه كـــان قـــد اقســـم يمينـــاً للامبراطـــور هنـــري الرابـــع عنـــدما عينـــه دوقـــا للـــورين (1) وفي ذلـــك يقول عاشـــور ان ((ان جـــودفري الـــذي جـــاء تبعـــا لـــدعوة البابـــا اوربـــان الثـــاني وهـــو الامـــير الكـــاثوليكي علـــى راس حملتـــه فكيـــف يقـــدم ولاءه الى الامبراطور البيزنطـــي حـــامي الكنيســـة الارثوذكســـية وان هنـــاك انشـــقاق بـــين الكنيستين الشرقية والغربية))(2) .
كما انه لا يعمـــل بخطـــوة هامـــة الا بعـــد استشـــارة القـــادة الصـــليبيون الـــذين ســـــوف يصـــــلون القســـــطنطينية ثم رجـــــع هيـــــو الى الامبراطـــــور البيزنطـــــي الكسيوس دون ان يحصل على اجابة صريحة من جودفري (3) .
فكان جودفري ينتظـــر وصـــول جميـــع قـــادة الجيـــوش الصـــليبية لكـــي ياخـــذوا موقفـــا موحـــدا امـــام الامبراطـــور البيزنطـــي لـــذلك اخـــذ جـــودفري يـــؤخر مقابلته للامبراطور(4).
لذلك حاصـــر الامبراطـــور معســـكر جـــودفري لمـــنعهم مـــن الاتصـــال بغيرهـــم مـــن قـــادة الافـــرنج ، لاســـيما وان بوهمنـــد في طريقـــه الى القســـطنطينية فـــاراد

الإمبراطـــور الـــتخلص مـــن جـــودفري وايجـــاد حـــل للمســـالة مـــع وجـــودفري لكنـــه اســـتمر مـــع موقفـــه الـــرافض لمطالـــب الامبراطـــور فغضـــب الكســـيوس وشدد الرقابــة علــى جــودفري واتباعــه لمــنعهم مــن اتصــالهم بــالفرنج(5) . فقطـــع عنـــهم الاقـــوات والامـــدادات وادى هـــذا الى نـــزاع بـــين الصـــليبيين والبيزنطيين تحولت الى قتـــال بينـــهما فـــالجيش البيزنطـــي حاصـــر مدينـــة (بـــيرا) وقام جودفري وبلدوين بنـــهب المدينـــة واشـــعال الـــنيران بهـــا ثم غـــادروا المدينـــة الى الجهة الاخرى (6) .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص216 .
عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص12 .
العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1،ص186 .
عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1، ص149 .
يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص178 .
عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1،ص151 .

وتم الهجوم علـــى اســـوار القســـطنطينية كمـــا تتبـــع الافـــرنج البيـــزنطينين حـــتى وصـــلوا الى احـــد ابـــواب قصـــر الامبراطـــور واحرقـــوه (1) . وقـــد واجـــه الجـــيش البيزنطـــي هجمـــات الفرنجـــة ودارت معركـــة بينـــهما اســـتمرت خمســـة ايـــام وتـــردت اوضـــاع الفرنجـــة لمنـــع الامبراطـــور المـــؤن عنـــهم وقـــد ارســـل الكســـيوس كـــومنين هيوفرمانـــدوا للمـــرة الاخـــيرة الى جـــودفري لاقناعـــه بقسم يمين الولاء لكنه كان مصراً على موقفه الرافض (2) .
ولكي ينهي الامبراطور هـــذه المشـــكلة ارســـل رســـلا الى جـــودفري ينـــذره مـــن العبـــور الى اســـيا قبـــل ان يـــؤدي قســـم الـــولاء فغضـــب جـــودفري واتباعـــه فهـــاجموا الرســـل دون ان يعرفـــوا منـــهم مـــا ســـيقولونه لـــذلك تصـــدت لهـــم القوات البيزنطية بقوة كبيرة من الجنود انهزم فيها جودفري (3) .

وتبين لنا هذه الرواية التي انفرد بذكرها وليم الصوري وهو يرى ان جودفري لا يمكن اجباره على مقابلة الامبراطور باي وسيلة وذلك لخوف الكسيوس من وصول بوهمند بعد ان عرف بوصول رسول منه يحمل رسالة الى جودفري يتوسل فيها بعدم مقابلة الامبراطور البيزنطي ، هذا اضافة الى ان وصول بوهمند واجتماع القادة الصليبيين مع بعضهم قبل مصالحة الامبراطور لجودفري فقد يتحدون مع بعضهم لتدمير الامبراطورية لذا كان على الامبراطور ان يرسل وفدا مرة ثانية الى جودفري يتوسل به لمقابلته في القصر حيث ارسل الامبراطور(*) رهينة الى جودفري وتم استقبال ابن الامبراطور واوكل جودفري الى اخيه بلدوين(4) .

Mayer ,op, cit, P. 48 .

يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص188-189 .

جبشي ، الحرب الصليبية الاولى ، ص73 .

(*) ابنه : وهو جون بورفيروجنتس المولود في الغرفة الارجوانية وولي عهد عرش الامبراطور الكسيوس (الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص209) .

(4) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص209 .

ثم توجه جودفري الى قصر الإمبراطور ليقسم له يمين ، واستقبله الإمبراطور استقبالا حارا وتم الاحتفال به وبنبلائه وقد اتخذه الإمبراطور ابنا له بعد ارتدائه الثوب الإمبراطوري وتعهد جودفري للإمبراطور البيزنطي بتسليم جميع الأراضي التي كانت ملكا للإمبراطور ، قبل موقعة ملاذكرد والتي سوف يستردها الصليبيون من السلاجقة وتشمل إنطاكية والرها(1) .

وبعد ان اصبح جودفري تابعا للإمبراطور البيزنطي حيث أمده الكسيوس بالهدايا والخيول والمؤن واعتبر اتباعه جنودا مرتزقة يقومون بخدمته وصرف لكل واحداً منهم راتبا عند رجوع الإمبراطور الى معسكره ، ثم ارسل الامبراطور ولده الى جودفري الذي اعاده برفقة الحرس وبعناية وتكريم ، واصدر الإمبراطور مرسوما ببيع جودفري ما يحتاج أليه من مستلزمات بأسعار مناسبة كما شدد جودفري على اتباعه بعدم القيام بأية إساءة إلى رجال الإمبراطور ، وفي سنة (491هـ/العاشر من نيسان 1097م) أمر الإمبراطور بنقل جودفري واتباعه الى الشاطئ الآسوي لحين وصول حملة بوهمند النورماني (2) .

عندما وصلت الاخبار الى بوهمند وهو الابن الأكبر لروبرت جويسكارد بان جيوشا عديدة قد توجهت الى بيت المقدس وكان بوهمند في تلك الأثناء يحاصر مدينة امالفي (*) سنة (490هـ/1096م)(3) لان أهلها تمردوا على الحكم النورمندي وبداوا يهددونه لذلك خرجت الأسرة النورمندية جميعها لمحاصرة المتمردين في امالفي (4) . فعندما وصلت الى بوهمند اخبار الحملة الصليبية وجد فيها منفذا لتحقيق أحلامه في إقامة أمارة على الساحل الشرقي لبحر المتوسط لذلك ترك حصار امالفي والتحق بالحملة الصليبية (5) .

Grousset ,Ren, Histoire does croisades du Royaume ,franc ,de Jerusalem (paris –1034) ,Vol.1,p.19 .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص210-211 .

(**) امالفي : مدينة ايطالية ثارت ضد الحكم النورماني (عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1،ص153) .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1،ص189 .

المؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة ، ص25 .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص222 .

وانضم إلى جانبه ابن أخته تنكرد(*) إضافة الى نبلاء النورمان الاقوياء من فرنسا وايطاليا وصقلية وكان جيشه اقل عددا من جيش جودفري لكنه اكثر تدريبا وعدة فعبر جيشه البحر الادرياني وساروا حتى وصلوا الى دور ازو فاوصى بوهمند اتباعه بعدم العبث فيها لانها بلادا مسيحية كما تزود منها بكميات كافية من المؤن(1) . ثم سار اتباع بوهمند حتى وصلوا الى كاستوريا(**) ولم يقبل سكان هذه المدينة بتقديم ما يحتاج اليه بوهمند واتباعه لان هؤلاء اعداء قساة ،لكنهم استخدموا القوة في الحصول على احتياجاتهم وتوجه بوهمند شرقا وهاجم القرية القريبة من كاستوريا فقتلوا سكانها حرقا او بالسيف واحرقوا ابنيتها واستولوا على كميات كبيرة من الغنائم (2) .

ارسل الامبراطور اوامره الى قادة جيوشه ان يبلغوا الصليبيين بعدم البقاء اكثر من ثلاثة ايام في المناطق التي يمرون بها مع ملازمة الجيوش الصليبية دائما وان يقوموا بالهجوم على الجيش المتقدم عندما يسمح لهم المجال وقد اوفد الامبراطور الى بوهمند بعض نبلاء عائلته وهم يحملون رسالة مكتوبة ورسالة شفوية من الامبراطور البيزنطي تتضمن الكف عن القيام بالنهب والحرق والعنف وانه سوف يحصل على العديد من الهدايا والمنح اضافة الى توفير احتياجات جيشه من السلع والمؤن ، وشكر بوهمند الامبراطور للكرم الذي ابداه ثم تصرف بحذر لانه كان يعلم مدى الحقد الذي ينويه الامبراطور له (3) .

فقد اجتاز قسم من اتباعه البحر وبقي القسم الاخر يتهيا للاجتياز(4) لذلك وجد جيش الامبراطور بان المجال مفتوحا لمهاجمة جيش بوهمند من الخلف وعندما سمع تنكرد بذلك عبر الى الضفة الاخرى وهاجم جيش الامبراطور وطارد فلوله

(*) تنكرد : ابن اما Emma ابـــن اخـــت بوهمنـــد ووالـــده اسمـــه ولـــيم المركيـــز والاخـــرين يدعونـــه اودو وان والـــده مســـيحيا لاتينيـــا (الصـــوري ، تـــاريخ الحروب الصليبية ،ص215) .

(1) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص223-224 .

(**) كاســتوريا : وهـــي مدينـــة تقـــع غـــرب مقـــدونيا (رنســـيمان ، تـــاريخ الحروب الصليبية ، ص224) .

(2) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص212 .

(3) المصدر نفسه ،ج1 ، ص312 - 313 -314 .

(4) الشارتري ، تاريخ الحملة الى القدس ، ص44 .

المنهزمة وقتل عـــددا منـــهم ووقـــع عـــدد مـــن الاســـرى بيـــد بوهمنـــد فـــاطلق سراحهم لما عـــرف بـــانهم يقـــاتلون عنـــدما يطلـــب منـــهم الامبراطـــور وطلبـــا للرزق وقد قابـــل بوهمنـــد العـــدوان بالتســـامح وضـــبط الـــنفس ليمنـــع شـــكوك الامبراطـــور البيزنطـــي الكســـيوس كـــومنين وبهـــذه الطريقـــة اســـتطاع ان يكسب ود الامبراطـــور البيزنطـــي لكـــي يـــزود قواتـــه بـــالمواد الضـــرورية مـــن السلاح والاقوات (1) .

وسار جيش بوهمنـــد حـــتى وصـــل الى ســـيرا (*) Serra حيـــث التقـــى برســـل الامبراطور البيزنطي وطلبوا منـــه مقابلـــة الامبراطـــور البيزنطـــي مـــع عـــدد قليـــل من مرافقيـــه وتـــرك عســـاكره تحـــت قيـــادة تنكـــرد فقـــد خـــاف مـــن نوايـــا الامبراطـــور البيزنطـــي كمـــا وصـــل اليـــه جـــودفري ليطلـــب منـــه الاســـتجابة لمقابلة الامبراطور والمثول امامـــه واخـــيرا اقتنـــع بكـــلام جـــودفري وذهـــب معـــه -(2) .

فوصـــل بوهمنـــد اســـوار القســـطنطينية في التاســـع مـــن نيســـان ونـــزل في ديـــر القديســـين وفي اليـــوم الثـــاني اراد الكســـيوس كـــومنين اللقـــاء مـــع بوهمنـــد لوحـــدهما ليختـــبر موقفـــه نحـــوه فوجـــده بانـــه صـــادق في كلامـــه ومســـاندته

لـذلك اشـرك في المناقشات الـدائرة بينـهما كـل مـن بلـدوين وجـودفري لانهما يعتقدان ان بيزنطة دولة قوية فمن المصلحة التحالف معها (3) .

وعندما وصـل بوهمنـد الى القصـر الامبراطـوري اسـتقبله الكسـيوس كـومنين استقبالا حارا ووصـفت (آنـة) اسـتقبال والـدها لبوهمنـد حيـث تقـول(4) :((ان اباهـا اسـتقبل الامـير النورمانـدي مرحبـا ومحييـا وان الابتسـامة لم تكن تفارق وجهه وان اخد يسـال عـن احوالـه وعـن رحلتـه والمكـان الـذي ترك فيه باقي النبلاء الـذين جـاءوا معـه مـن الغـرب وكـان بوهمنـد صـريحا واضحا في اجابته عن الاسئلة الـتي وجههـا اليـه الكسـيوس لكـي يسـترد ثقـة الامبراطور فيه)) .

---

(1) المؤلف المجهول ، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ،ص28 .

(*) سيرا : وهي مدينـة تقـع في مقـدونيا الشـرقية (المؤلـف المجهـول ، اعمـال الفرنجة ،ص28) .

(2) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص214-215 .

(3) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص226-227 .

Alexiad ,op .Cit ,Vol.10.p.p .265-266 .

وبعـد الانتـهاء المقابلـة وفي ظـروف قائمـة علـى المحبـة والانسـجام اعلـن بوهمند تبعيته للامبراطـور البيزنطـي بعـد ان اقسـم يمـين الـولاء لـه واغـدق عليه الهدايا الثمينة كالذهب والاواني والاثواب والاحجار الكريمة (1) .

وقـد طلـب بوهمنـد مـن الامبراطـور البيزنطـي اقطاعـا في مدينـة انطاكيـة فوافق الامبراطور علـى طلبـه (2) ، كمـا طلـب منـه ان ينصـبه قائـدا عامـا لقـوات الامبراطوريـة في اسـيا الصـغرى ليسـيطر علـى الجيـوش المتحالفـة ويتحكم في علاقتها بـالامبراطور وقـد تحـرج الامبراطـور مـن طلـب بوهمنـد هذا ووعده بهذا المنصب حين توفر الظروف المناسبة (3) .

وسار الحال بـين الامبراطـور البيزنطـي والنورمـان بحسـن سياسـة الكسـيوس كومنين(4) . اما تنكـرد فقـد انـزعج مـن تصـرفات بوهمنـد وعـبر البسـفور

بجيشه دون علم الامبراطور كي لا يقسم يمين الولاء للامبراطور وعندما علم به غضب منه وانضمت جيوشه مع جيوشه جودفري(5) .

ثم جاءت الحملة البرو فانسالية (*) سنة(490هـ/ تشرين الاول 1096م) وكان قائدها ريمون الرابع دي سانت جيل كونت تولوز وهو من اكبر امراء جنوب فرنسا واكثر قادة الصليبيين مالا انضم الى حملته عدد كبير من الفرسان ورجال الاقطاع من جنوب فرنسا وقد وفر المؤلف لاتباعه على طوال رحلته وكان الرئيس الروحي لحملته ادهمار(**) الذي عينه البابا (6) .

الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص215 .

المؤلف المجهول ، اعمال الفرنجة ، ص31؛ زكار ، د. سهيل ، الموسوعة الشاملة ، ج1، تحقيق وترجمة د. سهيل زكار ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ، (دمشق 1995) ، ص89 .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج1، ص193-194 .

عاشور ، الحركة الصليبية ، ج1، ص156 .

المؤلف المجهول ،اعمال الفرنجة ، ص32 .

(*) البروفانسالية : هم جيش ريموند الذين قدموا من برجنديا واوفرن وغسقونيه واشتهروا بهذا الاسم (العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ،ج1،ص195) .

(**) ادهمار مونتي : وهو اسقف مدينة بوي (باركر ، الحروب الصليبية ،ص27) .

(6) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص75 .

وسارت الحملة من جنوب فرنسا ومرت شمال ايطاليا ولم تحدث اعمال الشغب ووصلت الى دورازو وتوثقت العلاقة بين حاكمها(*) وريموند وكان حرس الامبراطور البيزنطي ورسله يرقبون وصول ريمون واتباعه لمراقبتهم على الطريق الامبراطوري كما اوفد ريموند سفارة الى الامبراطور ليكون على علم بوصوله (1) . وسار ريموند واتباعه حيث وقعت اشتباكات بين جيش الامبراطور وقوات ريموند الذين كرهوا الجيش البيزنطي بسبب مراقبتهم لهم فقتل اثنين من البروفنساليين ثم واصل ريموند وجيشه المسير وفي الطريق تاه ادهمار فهاجمه الجيش البيزنطي المرافق لهم فجرح واسر وبقي في سالونيك(**) لحين شفائه ثم التحق بجيش ريموند الذي واصل سيره الى (روسه)(***) حيث قاموا بنهب دور المدينة لعدم توفر المؤن لبيعهم مما زاد من كراهية اهلها لريموند واتباعه(2) . وفي تلك الاثناء وصل اليه وفدا يحمل رسالة من الامبراطور ودعوة جودفري وبوهمند بالحضور فترك ريموند جيشه وعجل في وصوله الى القسطنطينية ظنا منه في عدم وجوده سوف تتخذ قرارات هامة .

وعندما وصل ريموند القسطنطينية حيث نزل في قصر خارج اسوارها وفي اليوم التالي دعاه الامبراطور للحضور في قصره فاستقبله استقبالا لائقا ثم طلب منه ان يقسم له يمين الولاء بعد ان جرت بينهما المحادثات الودية (3) . فرفض ريموند ذلك باعتباره قائدا عسكريا للحملة وفي تلك الاثناء وصلت أليه اخبار قواته التي تركها بيد قادة الجيش واتجه الى القسطنطينية حيث منيت بالهزائم وتركت امتعتها واسلحتها ولاذت بالفرار بسبب مهاجمتها الجهات التي فيها الجيش البيزنطي(4) .

(*) حـــاكم دور ازو : هـــو يوحنـــا كـــومنين ومـــورين الامبراطـــور الكســـيوس كومنين (يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص207) .

(1) العـــريني ، الشـــرق الاوســـط والحـــروب الصـــليبية ،ج1،ص196-197 .

(**) سالونيك : وهـــي مدينـــة بيزنطيـــة هامـــة قاعـــدة للاســـطول البيزنطـــي في البحر الايجـــي ومرفـــا لاصـــلاح الســـفن وهـــي عاصـــمة مقـــدونيا (غنـــيم ،د. اسمـــــت ، تـــــاريخ الامبراطوريـــــة البيزنطيـــــة ، دار المعرفـــــة الجامعيـــــة ، (الاسكندرية 1987)، ص101) .

(***) روسه : المنطقـــة الاوربيـــة مـــن تركيـــا كيشـــان حاليـــا (مـــاير ، تـــاريخ الحروب الصليبية ، ص76) .

(2) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص76 .

(3) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص234-235 .

(4) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص233-234 .

وقد وجد ريموند بـان مركـزه مهـدد عنـدما سمـع بـان الامبراطـور سـوف يعين بوهمنـد قائـدا للجيـوش الصـليبية فـاذا اعلـن تبعيتـه للامبراطـور فانـه سوف يقع تحت ضغط بوهمند الذي يعتبره منافسا خطيرا له (1) .

وقد شك ريمونـد في علاقـة بوهمنـد الوديـة بالكسـيوس فهـو يكـره بوهمنـد ولـيس الامبراطـور ، كمـا ان الكسـيوس كـومنين لم يمنحالهـدايا الثمينـة لريموند كمـا منحهـا لبقيـة الامـراء مـن قبلـه (2) ، وقـد حـاول بوهمنـد ارضاء الامبراطـور البيزنطـي فتعهـد لـه بانـه اذا مـا هاجمـه ريمونـد سـوف يقف وقواتـه الى جانبـه ضـد ريمونـد (3) . ونتيجـة لهـذا الضـغط والتهديـد استشـار ريمونـد بقيـة اتباعـه حـول موقفـه مـن الامبراطـور فـاتبع صـيغة تساوي صيغة قسـم فتعهـد بـاحترام ارادة الامبراطـور والحفـاظ علـى حياتـه وعندما وجه الامبراطـور الـدعوة اليـه لحضـور الحفـل الـذي اعـده للامـراء

الذين اعلنوا تبعيتهم له ، اعلن انــه لــن يحضــر هــذا الحفــل ولــو تم هلاكــه(4)
.

وفي تلك الظــروف وصــل ادهمــار واصــلح العلاقــة بــين ريمونــد والامبراطــور البيزنطي حيــث التقــى الامبراطــور بريمونــد لوحــدهما بعــد ان ذهــب بوهمنــد الى اسيا واوضــح لــه بانــه لا يجعــل مــن بوهمنــد قائــدا عامــا وانــه يكــره النورمان ثم توثقت العلاقــة بينــهما وجعــل ريمونــد مــن اصــدقائه وحليفــا لــه (5) .

ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص79 .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج1، ص198-199 .

المؤلف المجهول ، اعمال الفرنجة ، ص32 .

المصدر نفسه ، ص32 .

العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص199 .

امــا الحملــة الفرنســية فقــد اشــترك فيهــا فوشــيه الشــارتري(*) وروبــرت الثاني(**) امير الاراضــي الواطئــة امــا قائــد الحملــة الفرنســية فهــو روبــرت تــــورتهيز(***) امـــير نورمنـــديا Robert courteheuse وصـــهره ســـتيفن كونت بلوا (****) وخادم الكنسية ارنولف(*****) Arnulf(1) .

وفي اذار ســـنة 1097 م ســـارت الحملـــة الفرنســـية بعـــد ان تحولـــت في ايطاليا وروما وباركهــا البابــا حيــث عــبرت البحــر الادريــاني وغرقــت احــد سفنها في البحر مــع حمولتــها وغــرق معهــا اربعمائــة شــخص واســتمر ســير الحملــة حــتى وصــلت الى دورازو و لم تحــدث اعمــال شــغب في الطريــق

حيـــث ارســـل الامبراطـــور عـــدد مـــن الادلاء لمرافقـــة القـــوات الصـــليبية الى طريـــق القســـطنطينية وعنـــدما وصـــل الجـــيش الصـــليبي الى اراضـــي البلغـــار حيث كان هنـــاك نهـــر الشـــيطان (******) تغمـــره ميـــاه الفياضـــات وســـريع التدفق وفي اثناء عبور القوات الصليبية غرف عدد من افرادها(2) .

ثم واصـــلوا الســـير حـــتى وصـــلوا الى اســـوار القســـطنطينية فوضـــع الجـــيش في معسكرات خاصة لهم خـــارج اســـوارها وقـــد قبـــل الامبراطـــور بـــدخول اربعـــة او خمســـة مـــن افـــراد الجـــيش لمشـــاهدة القســـطنطينية وزيـــارة كنائســـها(3) .

وقد اغدق الامبراطـــور لهـــم مـــن الامـــوال والمـــؤن للجـــيش الصـــليبي فشـــكروه علـــى ذلـــك ثم قـــام قـــادة الحملـــة بقســـم يمـــين الـــولاء للامبراطـــور واعـــلان تبعيتهم له فزاد الامبراطور بتقديم الهدايا الثمينة

(*) فوشـــيه الشـــارتري : كـــان قسيســـا انضـــم الى الحملـــة الصـــليبية الاولى والتي انتهت بـــاحتلال القـــدس واصـــبح احـــد مؤرخيهـــا (الشـــارتري ، تـــاريخ الحملة الصليبية الى القدس ، ص10) .

(**) روبـــرت الثـــاني ده فلانـــدرز : ابـــن روبـــرت الاول وقـــد اســـتخدمه الكسيوس ضـــد الســـلاجقة واســـترد الاراضـــي المقدســـة (الصـــوري ، تـــاريخ الحروب الصليبية ، ص216) .

(***) روبـــرت كـــورتميز : هـــو الابـــن الاكـــبر لـــوليم الفـــاتح ويطلـــق عليـــه معاصروه اسم الدوق الطيـــب لطيبتـــه وحســـن ســـجاياه ورهـــن دولتـــه لاخيـــه ولســـم روفـــرس Wiliam Rufus لحصـــوله علـــى الامـــوال وانفاقهـــا علـــى الحملـــة وســـاهم في الاســـتيلاء علـــى القـــدس (رنســـيمان ، تـــاريخ الحـــروب الصليبية ،ج1،ص236-237) .

(****) ســـتيفن كونـــت بلـــوا : صـــهر روبـــرت كـــورتميز انتخـــب رئيســـا للجيش الصـــليبي بعـــد اســـتيلاء اللاتـــين علـــى نيقيـــه (يوســـف ، العـــرب والروم واللاتين ، ص215) .

(*****) ارنولـــف Arnulf الخـــادم الخـــاص لكنيســـة روبـــرت كـــورثهيز ثم اصـــبح بطريـــق لبيـــت المقـــدس (يوســـف ، العـــرب والـــروم واللاتـــين ، ص215) .

(1) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص76-77 .

(******) نهـــر الشـــيطان: الـــذي يقـــع في اراضـــي مهجـــور في البلغـــار (الشارتري ، تاريخ الحملة الى القدس ، ص44)

(2) الشارتري ، تاريخ الحملة الى القدس ، ص42-43-44 .

(3) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص77 .

لهم جـــراء ســـلوكهم هـــذا . ولغـــرض التحـــاقهم بـــالجيوش الاخـــرى ومحاصـــرة نيقيه فعبروا البسفور بعد بقائهم اسبوعين في القسطنطينية (1) .

وبسبب الاعـــداد الكـــبيرة مـــن الجيـــوش الصـــليبية المتوجهـــة نحـــو القســـطنطينية ضـــجر الامبراطـــور البيزنطـــي الكســـيوس كـــومنين لاســـيما وان بعـــض القـــادة اعداء قـــدماء للامبراطـــور ومنـــهم بوهمنـــد ومؤيديـــه الـــذين يريـــدون ان يتـــاح لهم مجالا للانتقـــام منـــه وقـــد امـــر الامبراطـــور فصـــائل القبائـــل (*) ان تراقـــب الجـــيش الصـــليبي وان تتصـــدى لهـــم وتطـــردهم اذا اغـــاروا علـــى الاراضـــي المجـــاورة للامبراطوريـــة البيزنطيـــة (2) . وكـــان الامبراطـــور لا يحـــب هـــؤلاء المتوحشين لكنـــه يحتـــاج الى معاونتـــهم ضـــد الســـلاجقة وكـــان لقائـــه معهـــم بالحذر وعـــدم الثقـــة لـــذلك اســـتخدم معهـــم المـــديح والوعـــود والرشـــوة(3). فكانـــت بيزنطـــة تـــرى في هـــذه الجيـــوش تحقيـــق اهـــدافها السياســـية لان الكسيوس لم يحتـــاج الى ايـــة امـــدادات ســـوى جنـــود مرتزقـــة يقـــاتلون تحـــت امرتـــه عـــدوا اســـتولى علـــى الارض الـــتي كانـــت خاضـــعة لنفـــوذه السياســـي (4) لذا فقـــد اختلفـــت المطـــامع والاهـــداف بـــين الكســـيوس والفـــرنج فكـــان قـــادة الفـــرنج يحســـون بالحاجـــة الى تاييـــد بيزنطـــة لهـــم في اســـتيلائهم علـــى اراضي جديدة يحكمونها في الشرق (5) .

لذلك بدا الصليبيون بالتقاطر على بيزنطة فحاول الامبراطور البيزنطي انقيادهم اليه واخضاعهم لسيطرته من خلال السياسة التي اتبعها بين السلب والايجاب باستعماله القوة وحسن المعاملة وتوزيع المؤن وقطعها وفرض الرقابة وبذلك استطاع الامبراطور تحقيق هدفه (6) . من خلال عقد الاتفاقية في سنة (491هـ/ايار 1097م) بالقسطنطينية فكان لبوهمند الدور الاكبر فيها وتنص على انقياد قادة الصليبيين لاداء يمين الولاء والتبعية

---

(1) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص227 .

(*) فصائل القبائل : وهم قبائل البتشينيغ العاملة في خدمة الامبراطور البيزنطي (زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ص68)

(2) زاريوروف ، الصليبيون في الشرق ، ص68 .

(3) علي ، برناردين ، فتح القسطنطينية ، دار التضامن للتجارة والطباعة ، بغداد 1962 ، ص57 .

(4) عاقل ، نبيه ، الامبراطورية البيزنطية ، دمشق 1969،ص66 .

(5) يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص222 .

Anna ,op,cit ,Vol:10 , p.262 .

للامبراطور باستثناء تنكرد وريموند تولوز واعادة الاراضي التي كانت تابعة للامبراطورية بعد تخليصها من قبضة السلاجقة الاتراك(1) . كما تعهد الامبراطور البيزنطي بحماية ومساعدة الصليبيين عند مرورهم باراضيه وان تشارك فرقة من الجيش البيزنطي مع القادة الصليبيين عندما تبدا الحملة وان يزود الامبراطور الصليبي بالاقوات عند الحاجة (2) .

ووعد الكسيوس الصليبيين بانه سوف يشارك في الحملة الصليبية المتجهة الى بيت المقدس واحتراما لتنفيذ الاتفاقية فقد جعل الكسيوس ابنه وصهره كرهائن وتنفيذ لهذه الاتفاقية فقد سلمت نيقيه الى بيزنطة من قبل الصليبيين(3) . بعد ان تم تخليصها من السلاجقة الاتراك .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص189 .

غنيم ، د. اسمت ، تاريخ الامبراطورية ، ص145 .

المصدر نفسه ، ص145 .

وسار بوهمنــد مــع هــؤلاء الــذين يعتــبرهم كــادلاء لــه ولمــا وصــل الى نهــر فاردار(***) (الوردار) .

الموقف العام قبل الحملة الكاثوليكية في اوربا:

اهتم تيبالد(*) كونت شامبانيا اهتماماً كبيراً بالمبادرة في توجيه حملة صليبية جديدة نتيجة للمباحثات التي قامت بين اصدقائه وجيرانه بعدما ساهم في مهرجان المبارزة الذي عقد في تشرين الثاني (596هـ-1199م) اذ تم استضافة فولك(**) اسقف نيللي تبعاً لاقتراح تبيالد وكان فولك يتمتع بالفصاحة والاقناع فاستطاع اثارة حماس المجتمعين الذين وعدوه بالاشتراك في الحملة الصليبية الرابعة وارسل رسولاً الى البابا ليعلمه بذلك(1)-.

وقد رحب البابا انوسنت(***) الثالث بالاخبار التي وصلته من تيبالد كونت شامبانيا بان الحملة الصليبية الرابعة تعمل على توحيد العالم المسيحي بضم العاصمتين الغربية والشرقية في وحده دينية واخضاع كنيسة بيزنطة لسيادته عن طريق اقناعهم بان روما تتفوق على

القسطنطينية مـــن الناحيـــة العقائديـــة وان يكـــون البابـــا صـــاحب الســـلطة في غرب اوربـــا (2) . وكـــان البابـــا قـــد دعـــى الى توجيـــه حملـــة صـــليبية منـــذ وصـــوله الى منصـــب كنيســـة رومـــا ســـنة (1198م) وذلـــك بســـبب الوضـــع المقلـــق في المشـــرق كمـــا دعـــى البابـــا الى مســـاهمة المســـيحيين الشـــرقيين والغربيين في الحملة الصليبية الرابعة التي تتوجهه الى بيت المقدس(3) .

(*) تبيالد كونت شـــامبانيا:هـــو ابـــن اخ غـــير شـــقيق لريتشـــارد قلـــب الاســـد وابن اخت غير شـــقيقة لفليـــب اغســـطس وشـــقيق لهنـــري كونـــت شـــامبانيا (رنسيمان ،تاريخ الحرب الصليبية ،ج2 ،ص 139)

(**) فولك اسقف :نيللـــي :وهـــو مـــن دعـــاة الحـــرب الصـــليبية الرابعـــة ومـــن خطبـــاء البابـــا ومندوبيـــه (جيبـــون ، ادوارد،اطمحـــلال الامبراطوريـــة الرومانيـــة وســـقوطها، ج3، ترجمـــة محمـــد ســـليم ســـالم ، المؤسســـة المصـــرية للتـــاليف والنشر ، (القاهرة 1969)، ص122

(1) رنســـــيمان ،تـــــاريخ الحـــــروب الصـــــليبية :ج3، ص195؛ ويســـــت ،الحروب الصليبية ،ص140،139 .

(***) البابـــا انوســـت الثالـــث : وهـــو مـــن اعظـــم الشخصـــيات الـــتي تـــولى منصـــب البابويـــة ســـنة 1198م في العصـــور الوســـطى (عاشـــور ، الحركـــة الصليبية ، ج2، ص929) .

(2) رنســـــيمان ، تـــــاريخ الحـــــروب الصـــــليبية ،ج3،ص196-197 ؛ كـــلاري ، فـــتح القســـطنطينية ، ص12؛ بـــاركر، الحـــروب الصـــليبية ،ص96 .

(3) عاشـــور ، الجهـــاد الاســـلامي ضـــد الصـــليبيين في العصـــر الايـــوبي ، ص279 .

وكان اهم مبشـري البابـا في فرنسـا هـو فولـك الـذي دعـى اهـل الريـف بالـدخول مـع اسـيادهم في الحـرب المقدسـة مـن خـلال جولاتـه في الـبلاد اضافة الى ما دعى اليـه مـارتن(*) مـن اثـاره في المانيـا (1) . وكانـت الحملـة الصـليبية الرابعـة حملـة فرنسـية تاليفـاً فقـط وكـان اعضـائها مـن الامـراء البارزين (2) .

وتم اختيـار تيبالـد(**) كونـت شـامبانيا قائـد للحملـة الصـليبية الرابعـة وبلدوين التاسـع(***) امـير الفلانـدر واخـوه هنـري(****) ولـويس كونـت بلـوا(*****) وجفـري الثالـث(******) بونيفـاس مـوتفرات(*******) Boniface of montferrat (3) .

(*) مـارتن : رئـيس ديـر بـايريس في المانيـا (رنسـيمان ، تـاريخ الحـروب الصليبية ، ج3،ص199) .

رنسـيمان ، تـاريخ الحـروب الصـليبية ، ج3، ص199 ؛ عاشـور ، الحركة الصليبية ،ج2،ص929 .

(2) باركر ، الحروب الصليبية ،ص74 .

(**)تيبالد كونت شـامبانيا : هـو مـن كبـار التـابعين وامـراء الطبقـة الثانيـة الـذي كـان سـياقا في الزحـف الى بيـت المقـدس (جيبـون ، اضـمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج3،ص212) .

(***) بلـــدوين التاســـع : وهـــو مـــن ابـــر شخصـــية في الحملـــة الرابعـــة واول امبراطـــور لاتـــيني للامبراطوريـــة البيزنطيـــة بعـــد ان ســـقطت بيـــد الصـــليبيين (الحميدة ، الحروب الصليبية ،ج4،ص197) .

(****) هنـــري شـــقيق بلـــدوين التاســـع : وهـــو مـــن الفرســـان الـــذين لعبـــوا دورا في العمليـــات العســـكرية واوفـــوا العهـــود الـــتي اعلنوهـــا في الكنـــائس ونوقشت العمليـــات في اجتماعـــات كـــبيرة قـــرروا فيهـــا انقـــاذ فلســـطين مـــن مصـــــر (جيبـــــون ، اضـــــمحلال الامبراطوريـــــة الرومانيـــــة وســـــقوطها ، ص213) .

(*****) لويس كونت بلوا : وهـــو مـــن ابنـــاء عمومـــة ملكـــي انجلتـــرا وفرنســـا (عبيد ، روما وبيزنطة ،ص319) .

(******) جفـــري الثالـــث فيليهـــا : وهـــو مارشـــال شمبانيـــا لـــه دور رئيســـي في الاعمال السياســـية والحربيـــة فهـــو ســـجل مذكراتـــه عـــن الحـــرب الصـــليبية مـــــن ســـــنة (1160-1213) (ديورانـــــت ، قصـــــة الحضـــــارة ،ج4،ص47) .

(*******) بونيفـــــاس مـــــوتفرات Bonface of montferrat : هـــــو امـــــير ايطـــالي ينتمـــي الى عائلـــة هوهنســـتوفن الالمانيـــة الحاكمـــة في الامبراطوريـــة الرومانية المقدســـة في الصـــقليتين وانتخـــب رئيســـا للحملـــة الرابعـــة (اليوســـف ، الامبراطورية البيزنطية ،ص152) .

(3) كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص12 .

دوافع الحملة

أ – الدوافع غير المباشرة

لقــد وجــد الغــرب الاوربي بــان هنــاك اســبابا كــثيرة لمهاجمــة القســطنطينية منها :-

1 : الانقسام بين الكنائس عنــدما كانــت الحركــة الصــليبية قــد بــدات فــان العداء ضد بيزنطة قــدم في الغــرب اضــافة الى سياســة عمانويــل العدائيــة ضــد الصليبيين (1) .

2 : كــره اللاتــين لبيزنطــة ممــا اتــاح المجــال للــدوق (*) البنــدقي والقائــد الصليبي ان يجعلا الــراي العــام يســاندهما(2) . فالسياســة الــتي اتخــذتها بيزنطــة هــي اســترجاعها الاقــاليم الــتي فقــدتها في الشــرق الادنى واعتمــدت في ذلــك على الصليبيين القادمين مــن الغــرب مقابــل مــا تقدمــه مــن الامــوال لــذلك تعد سياسة بيزنطة تجــاه الصــليبيين سياســة قائمــة علــى المســاعدات القليلــة ، او تعمل احيانــا علــى عرقلــة واضــعاف الحمــلات مــن خــلال خططهــا ممــا يؤدي الى فشل تلك الحملات الصليبية(3) .

3 : لقد وجــد الــدوق البنــدقي ان الامــن الــدائم للبندقيــة في الشــرق يمكــن الحصول عليه بتــدمير الامبراطوريــة البيزنطيــة رغــم الامتيــازات الــتي حصــلت البندقية عليهــا في عهــد الكســيوس الاول في الــبر والبحــر وقــد اكــد ابــاطرة بيزنطــــة يوحنــــا الثــــاني وعمانويــــل الاول ان البندقيــــة لايمكنــــها التســــليم بامتيازاتهــــا التجاريــــة رغــــم المحــــاولات المتكــــررة للامبراطوريــــة لزعزعــــة الكــــابوس البنــــدقي والــــذي عانــــت منــــه واظهــــرت ثــــورات واحتجاجــــات عديدة مما خلق لديها شعورا بعدم الامان الدائم(4).

فلم تــنسَ البندقيــة مــا قــام بــه عمانويــل بتخريــب حيهــا في القســطنطينية وتعريض امتيازاتها التجارية للضرر سنة (567هــ-1171م)(5) .

-----

(1) Ostrogorsky , G, op .cit .p.44 .

([*]) الدوق البندقي : امير البندقية اسمه هنري داندولو الذي وجه الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية لتحقيق طموحاته التجارية بعد احتلاله للقسطنطينية (كلتي ، برناردين ، فتح القسطنطينية : ترجمة شكري محمود نديم ، دار التضامن للتجارة والطباعة والنشر ، (بغداد 1962)،ص59-60 .

(2) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج3،ص211 .

(3) باركر ، الحروب الصليبية ، ص98؛ هسي ، العالم البيزنطي ، ص280 .

(4) Ostrogorsky ,G , op .cit .p.414 .

(5) رنسيمان ، المدنية البيزنطية ،ص59 ؛ باركر ، الحروب الصليبية ،ص99 .

ولم تنس مذبحة سنة (578هـ-1182م) في عهد اندرونيكوس وتعرض تجارتها الى خسائر فادحة(1) . ولم ينس دوق البندقية ما فعله عمانويل الذي كان قد سمل عينيه وهذا كله ادى الى زيادة الحقد والكراهية لبيزنطة(2) . لذلك كان الامر يتطلب انطلاق الشرارة الاولى من البندقية لتتحرك بعد ذلك جميع القوى المعادية التي تنتظر الفرصة المؤاتية لاستغلال المصاعب التي تواجهها الامبراطورية البيزنطية والحصول على مكاسب جديدة فان اقصاء الامبراطورية البيزنطية من الساحة السياسة سوف يتيح السيادة البحرية للبندقية في البحر المتوسط ،السيادة التي كنت للامبراطورية تهددها وكذلك الشعب الاغريقي الذي كان يهدد تلك السيادة(3) .

4 : الطموح النورماني القديم بالوصول الى القسطنطينية وقد تازم الوضع عندما استولى روجر الثاني على جنوب ايطاليا التي تعتبر من

املاك الدولة البيزنطية وما قام به هنري (*) السادس وريث النورمنديين بمهاجمة ومطالبته بعرشها وذلك لزواج اخيه من ابنة اسحاق الثاني (4) . وفي الحملة الصليبية الثانية تمت مناقشة فكرة السيطرة على القسطنطينية بحضور لويس السابع وقد نوقشت هذه الفكرة خلال الحملة الصليبية الثالثة لفردريك بارباروسا(5) .

-

رنسيمان ، ستيفن ، الحضارة البيزنطية ، ص201-202 .

جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج3،ص224 .

Setton , op.cit ,Vol,11,p.150 .

(*) هنري السادس : هو ابن فردريك بربروسا وخليفته على العرش تزوج من ابنه وليام النورماني ووريثته (عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ،ص310) .

باركر ، الحروب الصليبية ،ص99 .

Ostrogorsky ,op.cit ,p.414 .

5 : ان الصليبيين كانوا قد اختاروا لقيادتهم بونيفاس مونتفرات وكان سبب توجهه الى القسطنطينية لان اخويه قد تعرضا الى قساوة سادة الامبراطورية البيزنطية من خلال خدمتهما فيها ، اضافة الى ارتباط فيليب بصلة القرابة مع الكسيوس الصغير لزواجه من اخته(1) .

6 : كان الكسيوس الصغير قد طالب بالعرش بعد ان سجنه عمه الكسيوس الثالث مع ابنه اسحاق الثاني المخلوع من العرش وسمل عينيه لكن الكسيوس تمكن من الهرب الى المانيا سنة (598هـ-

1201م)(2) وكان عمه قد اخرجه من السجن واخذه معه لمقاتلة احد الضباط المتمردين(3) .وقد فر الى زوج اخته ملك المانيا فيليب وكان لديه استعداد لمساعدته لكن اضطراب الوضع الداخلي في المانيا جعل فيليب يتفق مع الصليبيين والدوق لمساعدة اسحاق الثاني وابنه بارجاعهما الى عرش بيزنطة(4) .

7 : كان سبب تحويل البندقية لاتجاه الحملة الرابعة نحو القسطنطينية هو للقضاء على منافستها بيزا في تجارة البحر المتوسط حيث ان الكسيوس الثالث قد زاد من امتيازاتها التجارية في القسطنطينية لكنه ضيق الخناق على تجارة البندقية فكان على البندقية ان تسعى للانتقام من الكسيوس الثالث انجيلوس(5) الذي عمل على محاربة مصالحها .

باركر ، الحروب الصليبية ، ص100 .

هامرتن ، تاريخ العالم ،ج5،ص117 ؛ لامب هارولد ، شعلة الاسلام ، ترجمة محمود عبد الله يعقوب ، مطبعة الارشاد ، (بغداد 1967)،ص331 .

عبيد ، روما وبيزنطة ، ص323 .

عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ،ص314 .

فشر ، اوربا في العصور الوسطى ، ج1،ص245 .

ب – الدوافع المباشرة

ان مطالبة الكسيوس الصغير بالعرش ومساندة الزعماء الصليبيين لهذا المطلب ، لتنفيذ ماربهم الخاصة ضد بيزنطة ، يمثل السبب المباشر لتغيير وجهة الحملة الرابعة للاستيلاء على القسطنطينية بدلا من الذهاب الى

الشـــرق ، وعنـــد التوقـــف في دور ازو تم الاعتـــراف بالكســـيوس الصـــغير امبراطوراً على بيزنطـــة ثم عقـــد الكســـيوس اتفاقيـــة مـــع حلفائـــه وتم اســـتئناف مســـير الحملـــة نحـــو القســـطنطينية حـــتى وصـــلت الى اســـوارها ولم يكـــن الامبراطور الكسيوس الثالث قـــد وضـــع التـــدابير اللازمـــة لمنـــع وصـــول الجـــيش الصليبي (1) وقد دخـــل الصـــليبيون مـــن اســـوار القســـطنطينية واحتلـــوا المدينـــة بعد ان كسروا السلاســـل الحديديـــة الـــتي كانـــت حاميـــة للقـــرن الـــذهبي كمـــا احرقت سفن البنادقة سفن الروم (2) .

واستطاع الكســـيوس الصـــغير ان يحمـــل الصـــليبيين علـــى الاعتقـــاد بـــان كـــل بيزنطـــة ســـوف تنـــهض للترحيـــب بـــه ؛ ولكـــن انـــدهش الصـــليبيون عنـــدما وجدوا بـــان جميـــع ابـــواب المدينـــة قـــد اقفلـــت وان جميـــع الجيـــوش البيزنطيـــة كانت مرابطـــة علـــى الاســـوار للـــدفاع عـــن المدينـــة وقـــد دهـــش الكســـيوس الثالث ايضا عندما راى ذلك (3) .

وعندما وجد الكســـيوس الثالـــث نفســـه في حـــيره امـــام عـــدوه ارســـل رســـالة الى القـــادة اللاتـــين يقـــول فيهـــا : ((فـــانتم مســـيحيون والامبراطـــور وشـــعبه ايضا مسيحيون)) وكان الموفـــد الـــذي حمـــل الرســـالة القـــائم في خدمتـــه وهـــو مـــن اللاتـــين وقـــد ثـــار في وجـــه الموفـــد شـــاعر لاتـــيني قـــائلا(4) : ((ان الكسيوس الثالث قد اغتصـــب التـــاج البيزنطـــي دون حـــق وعليـــه اعـــادة التـــاج الى الكسيوس الصغير ووضع نفسه تحت رحمته)) .

---

(1) رنســـيمان ، تـــاريخ الحـــروب الصـــليبية ،ج3،ص213؛ لانجـــر ، تـــاريخ العـــالم ،ج3،ص694 .

(2) رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ص178 .

(3) كلاري ، فتح القسطنطينية ،ص78-79 .

(4) عبيد ، روما وبيزنطة ، ص331-332 .

وقام الكسيوس الثالث بالهجوم على البنادقة فاشعلوا النيران بينه وبينهم وعندما اتجه لمحاربة الفرنجة هاجموه من الخلف واجبروه على الانسحاب (1) . وحين لاحظ الكسيوس الثالث قوة الجيوش الصليبية ندم على قيامه بسمل عيني اخيه وتمنى لو انه يستطيع اعادته الى العرش لكنه جمع ما يستطيع جمعه من الاموال(2) وملا حقيبة بالاحجار الكريمة ثم هرب خارج اسوار المدينة وبصحبته ابنته وتحت وطاة الظلام (3) .فاصبح العرش الامبراطوري شاغرا وعندئذ تم فك اسر اسحاق الثاني من قبل الموظفين وتنصيبه امبراطورا وتتويج ابنه شريكا له في الحكم واطلق عليه الكسيوس الرابع وطلب من حلفائه ايقاف الهجوم(4) .

كما دعى الصليبيون والبنادقة الكسيوس الرابع الى احترام الاتفاقية المعقودة بينهما بان يدفع الاموال المتفق عليها وتكوين قوة عسكرية توجه معهم الى بيت المقدس(5) . فكان على الكسيوس ان يطلب من الصليبيين البقاء لمدة سنة في القسطنطينية لحين توفر الاموال لديه لكن زيادة الاحتكاك بين الروم واللاتين نتيجة لازدياد فترة بقائهم ادت الى زيادة الكراهية بينهما(6) .

ان الكسيوس الرابع هو الذي جلب الفرنجة الى القسطنطينية وقد سخط الشعب البيزنطي عليه بعد ان وجدوه انتهازيا كما كره الشعب ال انجيلي جميعهم(7) . وفي سنة (1203م) ازداد جو المدينة توتراً عندما فرض الكسيوس الرابع ضرائباً على الشعب واغضب الكنيسة عندما بدل كثيراً من الاواني الكنسية واعطاها للبنادقة وتعطلت التجارة(8) .

لامب ، شعلة الاسلام ،ص362 ؛ ديورانت ، قصة الحضارة ، ج4، ص50 .

Setton ,op.cit Vol .II ,p.150 .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج3،ص215 .

ديورانت ، قصة الحضارة ، ج4، ص50 .
رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ج2،ص178 .
كلاري ، فتح القسطنطينية ،ص97 .
المصدر نفسه ،ص17 .
ديورانت ، قصة الحضارة ،ج4،ص50 .

وقد توسل الكسيوس الرابع الى القادة الصليبيين ان ينقلوا خيامهم العسكرية خارج المدينة فوافق الصليبيون على ذلك (1) ولم يشعر الناس بالامان خارج القسطنطينية لان جماعات من اللاتين تقوم بنهب ضواحي المدن(2) .

وجرت مواجهة بين اللاتين واهالي العاصمة البيزنطية وادت هذه المواجهة الى نشوب حريق اصاب كثيرا من المباني والكنائس اذ وصلت النيران الى الميناء واحرقت احد الاحياء المكتظة بالسكان فاهلكت اعداداً كبيرة من سكانه وبقيت النار مشتعلة لمدة اسبوع وحدث هذا الحادث بعد مغادرة الكسيوس الرابع خارج العاصمة (3) . ونتيجة لهذه الاحداث المروعة التي قام بها الصليبيون بدا الكسيوس الرابع بتغيير سياسته تجاه الصليبيين والبنادقة وذلك لترضية الشعب البيزنطي فقد قطع الهدايا التي كان يرسلها للقادة الصليبيين والبنادقة واخذ يستعلي عليهم لذلك تم تهديده من قبل البنادقة والصليبيين (4) .

وبالنظر لموقف الكسيوس الجديد عقد قادة الصليبيين ودوق البندقية اجتماعا مشتركا وقرروا فيه ارسال وفد الى القصر الامبراطوري ، وذهب الوفد سنة 1204هـ وطالبوا اسحق وولده بالوفاء بوعودهما للحملة وهددوه اذا لم يفي بوعوده(5) . كما ارسلوا اليه وفدا اخر للمطالبة بحقوقهم المتفق عليها، وكان جوابه على هذين الوفدين بانه لايخشاهم ولن يحصلوا منه على أي شئ واصدر امرا اليهم بمغادرة بلاده وهددهم بالعقوبة اذا لم يتركوا بلاده(6) . وبعد ان انتهى الوفد من تهديداتهم كانت اصوات الجالسين داخل الغرفة تطالب بمعاقبة وفد الفرنجة الذين هربوا بصعوبة من الحرس البيزنطي (7) .

قلبجي ، صلاح الدين ،ص461؛ لامب ، شعلة الاسلام ،ص364 .
كلتي ، فتح القسطنطينية ،ص60 .

ابن العـــبري، تـــاريخ مختصـــر الـــدول ،ص396 ؛ ويســـت ، الحـــروب الصـــليبية ، ص144 ؛ دحـــلان ، الســـيد امـــد بـــن زيـــني ، الفتوحـــات الاســـلامية ، ج2،مطبعـــة المـــدني ، القـــاهرة 1968، ص3؛ لامـــب ، شـــعلة الاســـلام ، ص366 .

عبيد ، روما وبيزنطة ، ص335 .

رنســـيمان ، تـــاريخ الحـــروب الصـــليبية ، ج3،ص218 ؛ كـــلاري ، فـــتح القسطنطينية ، ص98 .

كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص98 .

جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج3،ص238 .

موقف المدن الايطالية من الحملة الرابعة

كان الدوق هنري داندولو الرئيس الاعلى للبندقة في السلم والحرب وهو من الشخصيات البارزة في عهده وكان فاقداً للبصر لكنه امتاز بالشجاعة وحبه لوطنه وقوته العقلية(1) . وقد اكرم المحاربين وتعهد بتزويدهم بعدد كاف من السفن والمؤن بعد اجتماعه بهم وان يشترك بخمسين سفينة حربية مقابل الحصول على نصف البلدان التي يحصلون عليها في البر والبحر وان يدفع المحاربون اثمان نقلهم بالسفن(2) . وقد عقد الدوق اجتماعا دعى فيه المحاربين الصليبيين وقرروا في الاجتماع توجيه الحملة الى مصر لانها مركز القوة الاسلامية في الشرق وبعدها التوجه الى الاراضي المقدسة (3) .

وبدات استعدادات اهل البندقية بالتحضير للحملة فاملات المخازن بالعلف والمؤن وبناء معسكرات للجيش واصطبلات للخيول اضافة الى زوارق حربية وسفن واصبح الاسطول مهيا للابحار(4) .

ثم بدا الصليبيون يتجمعون في البندقية وقد دفعوا المال الذي كانوا قد جمعوه للحملة عندما طالبهم دوق البندقية به مقابل نقلهم في سفنه وفي ذات الوقت كان الدوق قد تحالف مع السلطان العادل مؤكدا عدم اشتراكهم مع الصليبيين ضد مصر في الحملة لانهم حصلوا على امتيازات تجارية واتفاقيات مهمة في الاسواق المصرية تحقق لهم ارباحا كثيرة منحها العادل وذلك للعلاقات الطيبة بينهما وفي الاسكندرية وافق العادل على انشاء فندق للبنادقة وتقليل نسبة الضرائب عليهم (5).

جيون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج3،ص216-217 .

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج3،ص205 .

المطــوي ، الحـــروب الصـــليبية ، ص102 ؛ قاســـم، ماهيـــة الحـــروب الصـــليبية ، ص148 .

جيبـــون ، اضـــمحلال الامبراطوريـــة الرومانيـــة وســـقوطها ،ج3،ص216-217 ؛

Brundage , James ,A,The crusades , The marquette university (Press –1962) , P. 193 .

(5) عاشـــور ، الحركـــة الصـــليبية ،ج2،ص933 ؛ فشـــر ، تـــاريخ اوربـــا في العصور الوسطى ، ج1، ص244-245 .

وعندما لم يجـد الصـليبيون المـال الكـافي لغـرض تسـديد مـا تطلبـه البندقيـة لـذلك طلـب منـهم دوق البندقيـة اسـترجاع مدينـة زارا(*) المسـيحية الـتي احتلها ملك المجر وتقـديمها الى البنادقـة مقابـل نقلـهم الى مصـر فوافقـوا علـى ذلـك (1) . وكانـت نيـة الـدوق البنـدقي هـو الانتقـام مـن الامبراطوريـة البيزنطية والاستيلاء علـى القسـطنطينية لمـا مـرت بـه البندقيـة مـن الاهانـات من قبل اباطرة بيزنطة(2) .

احتل الصـليبيون مدينـة زارا واغضـب هـذا العمـل البابـا انوسـت الثالـث عليهم واصدر قرار الحرمـان ضـدهم ثم اصـدر قـرار الغفـران بحقهـم بعـد ان تم ارسال وفد مـن الاسـاقفة وكبـار امـراء الصـليبيين (3) . فقـد وجـد دوق البندقية ان الفرصـة سـانحة لـه لفـتح موضـوع احـتلال القسـطنطينية عنـدما وجد ان الصـليبيين لم يكـن لـديهم المـال والـذخيرة وانهـم سـوف يصـلحون احـوالهم في بيزنطـة ويتجهـون الى بيـت المقـدس (4) وفي تلـك الاثنـاء وصلت سـفارة الى زارا مـن قبـل فيليـب (**) امبراطـور المانيـا تطلـب مـن الـدوق والصـليبيين مسـاعدة اسـحاق الثـاني وابنـه الكسـيوس الصـغير للوصول الى عرش بيزنطة(5) .

وهنـا قـد يثـار السـؤال مـن الـذي غـير اتجـاه الحملـة مـن مصـر الى القسطنطينية؟ هل يوجـد تحـالف سـابق بـين قـادة الحملـة هنـري البندقيـة ؟ لقد كانت وجهـة الحملـة الى بيـت المقـدس لاسـترجاعه مـن المسـلمين بعـد

ان تم تحريرهـــا علـــى يـــد صـــلاح الـــدين الايـــوبي 583هـــــ-1187م وضـــرب مصـــر مركـــز قـــوة المشـــرق العـــربي وجعلـــها قاعـــدة تنطلـــق منـــها الجيوش الصليبية الى بيت المقدس (6) .

-

(*) زارا : مدينـــة في يوغســـلافية تقـــع علـــى ســـاحل البحـــر الادرباتيـــك في مقاطعة دالماشيا (المطوي ، الحروب الصليبية ،ص104) .

(1) ديورانت ، قصة الحضارة ،ج4،ص47-48 ؛

Brundag , op.cit ,p.196 .

(2) هسي، العالم البيزنطي ، ص208 ؛

(3) عاشور ، الحركة الصليبية ، ج2،ص932 .

(4) يوســـف ، تـــاريخ الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ، ص152؛ هســـي ، العـــالم البيزنطي ،ص217 .

(**) فيليـــب : دوق ســـوابيا امبراطـــور المانيـــا وزوج اخـــت اســـحاق الصـــغير (هسي ، العالم البيزنطي ،ص207)

(5) رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ج2، ص177 .

(6) فشر ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ،ج1،ص244 .

وكان العامل الاكبر في تغـير سـير اتجـاه الحملـة هـم البنادقـة الـذين اتخـذوا مـن الـدين سـتارا لهـم لاقامـة دول وامـارات خاصـة لتحقيـق اهـدافهم الشخصية ولا دخل لمغريات سلطان مصر في تغير اتجاه سير الحملة(1) .

كما ان ظهور الكسـيوس الصـغير بعـد سـقوط زارا وتقـديم عروضـه المغريـة للصليبيين والبنادقة بمـا يحتاجونـه مـن الامـوال والمـؤن عنـد احـتلالهم مصـر ووعد انـه سـيقدم الامـوال الـتي بذمـة البنادقـة للصـليبيين ويخضـع كنيسـة القسطنطينية لكنيسة روما وسـوف يقـدم فرقـة مـن الجـيش البيزنطـي اذا مـا توجهـت الحملـة باتجـاه القسـطنطينية(2) فهـذا لـيس دليـل الصـدفة وانمـا

خطة دبرها قادة الحملة من البنادقة الايطالين والالمان والفرنسيين لاحتلال بيزنطة (3) . وقد فرح بونيفاس مونتغيرت Boniface of Montferratقائد الصليبيين وكان لديه رابطة عائلية قديمة تربط اسرته بالشرق كما فرح الدوق البندقي بهذا العرض لانه سيتيح له المجال للتدخل في شؤون بيزنطة (4) . (التي تتلخص في احتكار التجارة الشرقية وبناء امبراطورية تجارية تتحكم باقتصاديات وثروات عالم البحر المتوسط)(5) .

عندما تعهد الكسيوس الرابع للبنادقة بانه سوف يتحمل كل نفقات الحملة الرابعة بعدما يرجع الى عرش بيزنطة مع والده لكنه نقض عهده عندما طالبه البنادقة بحقوقهم(6) . فهدده دوق البندقية عندما ارسل اليه احد مبعوثيه لغرض اللقاء به والتحاور معه على انفراد عند الميناء فحضر الامبراطور البيزنطي وهو يمتطى حصانه فقال(7) له الدوق : ((نحن الذين رفعناك من هاوية القذارة وسنردك ثانية اليها واني لمتحديك ومنذرك لتعلم علم اليقين انني منذ هذه اللحظة فصاعدا ساحق بك من الاذى كل ما في قدرتي))

كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص20-21 .

جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج3، ص222 ؛ ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص282-283 .

كلاري ، فتح القسطنطينية ،ص20 .

لانجر ، موسوعة تاريخ العالم ،ج3 ، ص694 .

زيتون ، عادل ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، دار دمشق للطباعة والنشر ،د.م 1980) ،ص76 .

رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ج2، ص177 ؛ توفيق ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص198-199 ؛ قلجي ، صلاح الدين

،ص459-461 ؛ د. قحطان عبد الستار الحديثي ، د. صلاح عبد الهادي الحيدري دراسات في التاريخ الساساني ولبيزنطي ، ص423 ؛ المطوي ، الحروب الصليبية ، ص104

كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص98 .

وعندما لم يجد البنادقة أي مجال للتفاهم مع بيزنطة قرروا الاستيلاء على القسطنطينية بالقوة فقد سنحت لهم الفرصة عندما ثار شعب بيزنطة لتنحية الكسيوس الرابع عن منصبه فقد (1) اضطربت احوال بيزنطة وانتشرت الفوضى فيها في ظل تلك الظروف استطاع البنادقة ان يجدوا طريقا للتسلل الى اسوار المدينة فترل بعض جنود البنادقة وفتحوا ابواب القسطنطينية فدخلتها الجيوش الصليبية (2) وتمت مهاجمتها وتقسيمها بين القادة وبذلك سقطت القسطنطينية سنة (601هـ-1204م)(3) فحصلت البندقية على النصيب الاكبر من الغنيمة فازدات قوتها واستولت على الطرق البحرية وعلى المطابق والممرات المائية وتم تعين بطركيا بندقيا للقسطنطينية (4) .

ثم اصبحت جزيرة كريت من ممتلكات البنادقة عندما قام الدوق البندقي بشرائها من بونيفاس مونتغيرات Boniface of Montferrat وقد اطلق دوق البندقية على نفسه لقب ((سيد الربع ونصف الربع جميع الامبراطورية البيزنطية)) وبقي هذا اللقب يستعمل حتى منتصف القرن الرابع عشر لمن جاء من بعده من الخلفاء(5) ووجدت البندقية ان في الامبراطورية البيزنطية فرصة سانحة لها للنهب والتجارة(6) . كما وجدت اباطرة اللاتين اداة سهلة في يدها لان البنادقة لم (يؤدوا يمين الولاء للامبراطور اللاتيني في القسطنطينية عندما تم تقسيم الامبراطورية الرومانية)(7) .

توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص199 .

كلتي ، فتح القسطنطينية ،ص60 .

ابن الفرات ، لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ، تاريخ ابن الفرات ،م5،ج1، تحقيق د. حسن محمد الشماع ، دار الطباعة الحديثة ، بصرة ــ العراق 1970، ص12 ؛ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ،ج3، تحقيق جمال الدين الشيال ، مطابع دار العلم بالقاهرة 1960 ،ص160 ؛ القلقشندي ، صبحي الاعشى في صناعة الانشا ، ص408 ؛ الذهبي ، في خبر من غبر ، ط2، ج5، ص .

د. قحطان عبد الستار ،صرح الدين عبد الهادي الحيدري ، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي ، ص224 ؛ قلقجي ، صلاح الدين ،ص465 .

زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص75 .

فهمي ، د. عبد السلام ، فتح القسطنطينية ، دار الكتاب العربي ،(د . م) 1960،ص25 .

زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص76 .

اما جنوه وبيزا فلم يكن هناك ما تشير اليه المصادر الحديثة بدورها في الحملة الرابعة فقد قال (1) روبرت كلاري : ((ان وفدا صليبيا قد اتجه الى جنوه وبيزا للحصول على مساعدتهما من اجل الحملة الا ان الجنوبيين رفضوا تقديم اية مساعدة في حين اعتذرت بيزا عن تقديم العون للصليبيين بحجة انها لاتملك العدد المطلوب من السفن)) .

عنـــدما اســـتولى اللاتـــين علـــى القســـطنطينية ســـنة (601هـــــ-1204م) لم يعتـــرف الجنـــوبيين بالامبراطوريـــة اللاتينيـــة لـــذلك تعرضـــت مصـــالحهم ومصالح البيازنة للخطر من قبل اللاتين في القسطنطينية (2) .

كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص40 .

زيتون ، العلاقـــات الاقتصـــادية بـــين الشـــرق والغـــرب في العصـــور الوســـطى ، ص78 .

جرت مصادمات بـين الاغريـق واللاتـين ووصـلت ذروتهـا في كـانون الثـاني سـنة (601هـ -1204م) عنـدما حـاول الاغريـق ارسـال سـفن خشبية مشـتعلة لتـرتطم بسـفن البنادقـة ، الا ان الاسـطول لم يحتـرق سـوى سـفينة واحـدة للبنادقـة كانـت راسـية هنـاك(1) . وقـد ثـار الشـعب الاغريقي على الكسـيوس الرابـع لفشـله في السـيطرة علـى الجيـوش الصـليبية ، ولشـدة خوفـه فكـر في اسـتدعاء الفرنسـيين والايطـالين لحمايـة قصـره الملكي(2) عندئذ قـام الكسـيوس دوكـاس(*) بالاسـتيلاء علـى العـرش سـنة 1204م وسـجن اسـحق وسمـى نفسـه الكسـيوس الخـامس وقـد عـاش اسحاق فترة قصيرة وربما خنق الكسيوس الرابع في سجنه ايضا (3) .

ان الكسيوس الخـامس لم يكـن متسـامحا مـع اللاتـين فقـد وضـعهم نصـب عينيـه، فكـان يراقبـهم وان قسـاوته الشـديدة قـد خلقـت لـه اعـداء كثيرين(4) ، فقـد اقصـى الـوزراء غـير المـوالين لـه و لم يكـن لديـه الوقـت لجلـب جيـوش جديـدة لان حـراس المدينـة قـد تغـيرت اخلاقهـم بسـبب الثورات لذلك كان هناك مـن الخونـة في الـداخل الـذين تعـاونوا مـع البنادقـة مقابل حصولهم على الاموال (5) .

فكانـت القـوات القسـطنطينية تقاتـل بعنـاد شـديد الجيـوش الصـليبية عنـد مدخل اسوار القسطنطينية فهـي تصـد الهجمـة تلـو الاخـرى واخـيرا انكسـر المعسكر البيزنطي وفر قائد القوات البيزنطية من ارض المعركة(6) .

---

(1) كـلاري ، فـتح القسـطنطينية ، ص99-100 ؛ لامـب ، شـعلة الاسلام ،ص366 .

(*) الكسـيوس دوكـاس : هـو ابـن اخـر لزوجـة الامبراطـور الكسـيوس الثالث ، Setton , po.cit ,Vol .II ,p.150

lbid , op .150 ;

؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ،ص396
Ostrogorsky op. Cit ,p.315 .
Setton , op.Cit .Vol .II, p.151 .
رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج3،ص220 .
ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ،ص396 ؛
Setton , op.Cit .Vol .II, p.151 .

ودخل الصليبيون القسطنطينية وهم سكارى وقاموا بعمليات النهب والتدمير للكنائس ومكتباتها فكسروا اواني الفضة وقطعوا مفروشاتها وستائرها وربطوا حيواناتهم بداخلها وداسوا الكتب المقدسة (1) .

وقد وصلت النيران التي اشعلها الصليبيون الى الجامع الذي بنى في عهد بني امية والذي اقيمت فيه الخطبة سنة (585هـ-1189م) عندما تم الصلح بين الامبراطور وصلاح الدين وقد ماتت اعداد كبيرة من النساء والاطفال عندما تعرضت البيوت والاكواخ الى هجوم وتدمير من قبل الجيوش الصليبية . (2)

ازاء هذا الموقف اتفق الفرنجة والبنادقة على اقتسام القسطنطينية فيما بينهم فاصبح نصيب الصليبيين خمسة اثمان والبنادقة كان نصيبهم ثلاثة اثمان القسطنطينية اضافة الى الجزر البحرية وخصص ربع القسطنطينية للامبراطور الذي سوف يتم اختياره من بين قادة الحملة الصليبية الرابعة(3) . ومن قبل لجنة تتكون من اثنى عشر شخصا نصفهم من الفرنجة ونصفهم من البنادقة(4) . وتم اختيار الكونت بلدوين فلاندرز امبراطورا لاتينيا فكان غنيا ومتسامحا ومن عائلة عريقة(5) .

كما تم تاليف لجنة لمساعدة الامبراطور الجديد في توزيع الاقطاعات على قادة الصليبيين وتعيينهم في المناصب العليا للامبراطورية وتكونت اللجنة من اربعة وعشرين شخصا قسم منهم من البنادقة والقسم الاخر من الفرنجة . ويصادق البابا على ما يقرره اتفاق الفرنجة مع البنادقة(6) .

----

(1) ايـــن كـــثير ، الحـــافظ ، البدايـــة والنهايـــة ،ج13، ص36 ؛ ابـــن العـــبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص397؛ كلتي ، فتح القسطنطينية ، ص61 .

(2) ايـــن كـــثير ، البدايـــة والنهايـــة ،ج13، ص36 ؛ غنـــيم ، تـــاريخ الامبراطوريـــة البيزنطيـــة ، ص159 ؛ ديورانـــت ، قصـــة الحضـــارة ،ج4، ص50 .

Hussey , Goan ,Cambirdge , medieval History (Thuniversity press –cambirdge , 1966) , Vol..4 , part ,1 .p.288 ,

؛ بن العبري ، تاريخ مختصر الدول ،ص397 .

Ibid , P.288 .

؛ عاقل ، الامبراطورية البيزنطة ، ص317-318 .

ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص397 .

عبيد ، روما وبيزنطة ، ص341 .

موقف حكومة نيقيه من اللاتين

الحملـــة الصـــليبية الرابعـــة لم تســـتطع الســـيطرة علـــى الامبراطوريـــة البيزنطيـــة بالكامـــل بـــل وظـــل قســـما مـــن اســـيا الصـــغرى تابعـــا للاغريـــق واســـتطاع ثيـــــودور(*) الاول لاســــــكاريس Theodore Lascaris ان يجمـــــع جميـــــع الرجال لمقاومة اللاتين من اماكن متعـــددة ومـــن ظـــل حيـــا مـــن جنـــود بيزنطـــة لينشـــئ في المنفـــى مركـــزاً للســـلطة البيزنطيـــة في نيقيـــه ســـنة (1204م)(1) وكان لهذه الامبراطوريـــة حضـــورا اكـــبر مـــن الامبراطوريـــات الـــتي نافســـتها في المنفـــى . وان مـــا حققتـــه مـــن نجـــاح يرجـــع الى قـــدرة امبراطورهـــا ثيـــودور لذلك كان اللاتـــين يقلقـــون مـــن حكومـــة المنفـــى لانهـــا تهـــدد امبراطوريتـــهم اللاتينيـــة بالســـقوط وتعمـــل علـــى ارجـــاع الامبراطوريـــة البيزنطيـــة (2) وقـــد فشل اللاتـــين في اخضـــاع شـــعب اســـيا الصـــغرى لســـيطرتهم لكنـــهم غضـــوا النظر عن ذلـــك عنـــدما تم اســـر امبراطـــور اللاتـــين اثنـــاء حـــربهم مـــع البلغـــار . (3)

وبما ان البندقية هي المحرك لتوجيه الحملة الى القسطنطينية لتفتيت الامبراطورية البيزنطية وتكوين امبراطورية اللاتين لذلك كان عليها ان تحمي هذه الامبراطورية وتدافع عنها حفاظا على امتيازاتها للتجارية لان الضرر الذي يصيب الامبراطورية اللاتينية يلحق الاذى بالبندقية لذلك كانت تخشى مما حققته نيقيه من نجاحات على اللاتين فكانت ترى ان وجود نيقيه هو خطر يهددها لذلك كان عليها التقرب من نيقيه واقامة علاقات تجارية معها (4) .

ويبدو مما تقدم ان هذه الحملة كانت تحركها وتحدد مسارها المصالح الذاتية للقائمين بها بغض النظر عن الاسس المبدئية التي يزعم قادة هذه الحملة انهم قد حشدوا قواهم من اجلها .

(*) ثيودور لاسكاريس : زوج ابنة الامبراطور الكسيوس الثالث وكان محاربا وسياسيا ، يوسف ، جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ط3، طبع في مطابع رويان ، (القاهرة 1971) ،ص317 .

يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص317 ؛ غنيم ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ،ص162.

يوسف ، تاريخ الدولة البيزنيطة ، ص269-270 .

رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ،ص184 .

زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب ، ص81 .

الأوضاع السياسة والعسكرية للامبراطورية الرومانية إلى أواخر القرن الرابع ميلادي

تمهيد: تحولت روما من النظام الملكي الدي بدأت به تاريخها إلى النظام الجمهوري الدي شمل القرون الخمسة الأخيرة قبل الميلاد. وتم لروما خلال هذه المرحلة دعم نظامها السياس في الداخل وفرض نفوذها في

الخارج حتى صارت مع اقتراب القرن الأخير قبل الميلاد قوة سياسية وعسكرية هائلة ودولة عظيمة في العالم القديم5. وكان يمثل روما اثنان من القناصل يمثلان السلطات العليا في الجيوش الرومانية، وكان يتجدد انتخابهما كل عام، وكان هناك مجلس السيناتو sénat أو مجلس الشيوخ الذي كان يمثل السلطة التشريعية في روما.

وخلال هذا العصر الجمهوري تمت أغلب الفتوحات الرومانية الهامة واتسعت مساحة الامبراطورية الرومانية إلى أقصاها أواخر القرن الأخير قبل الميلاد في عهد الامبراطور أوغسطس، وفي القرن الأول الميلادي أضيفت إليها ولاية بريطانيا، وهكذا صارت حدود الامبراطورية الرومانية تمتد من المحيط الأطلسي غرباً والراين والدانوب شمالاً والفرات شرقاً وصحراء العرب وصحراء إفريقيا جنوباً. وكان الحد الشمالي عند نهر الراين والدانوب يفصل بين العالم الروماني وعالم البرابرة6 وهو المصطلح الذي أطلقه الرومان واليونان على تلك

الشعوب التي لا تتقن اللغة اليونانية واللاتينية وهذا المصطلح يحمل في طياته معاني الاحتقار الذي يعني المتوحش7. وامتد الحد الجنوبي إلى جبال الأطلس في إفريقيا وشلال النيل والصحراء الإفريقية وامتد الحد الشرقي من صحراء الشام وفلسطين إلى بلاد القوقاز كما مثل الميحيط الأطلسي حداً غربياً للعالم الروماني.

وقد أدى التنافس بين قادة الجيش في القرن الأخير من عهد الجمهورية إلى إهمال التقاليد التي كان معمولاً بها وصار الانتصار في الحرب مبرراً كافياً للوصول إلى قمة السلطة، وكان أول من فعل ذلك هو أكتافيوس الذي انتصر على خصمه أنطونيوس سنة 31ق.م وهكذا صار هناك ما

---

[5] نقصد بالعالم القديم الصين والفرس وبلاد الرافدين ومصر.

[6] محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ أوربا في العصورالوسطى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية،1995، ص ص.9-10

[7] حاطوم نور الدين، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، مطبعة دمشق1987، ص.17

يعرف بالامبراطورية الرومانية التي تعتبر تاريخها في القرون الأولى للميلاد المدخل الطبيعي لتاريخ العصور الأوربية الوسطى.

2- عناصر الوحدة في الامبراطورية الرومانية إلى غاية القرن الثالث الميلادي

يذكر الدكتور م.م. الشيخ أن عناصر وحدة الامبراطورية الرومانية كانت تتمثل في الجوانب التالية:

نشأة حركة التجارة وتبادل السلع بين الأقاليم ويرجع هذا الازدهار في التجارة إلى شبكة طرق المواصلات المزدهرة، وكثرة الانهار الصالحة للملاحة وكذلك البحر المتوسط الذي يشكل مجالاً هاما للحركة التجارية في أوربا والمشرق وشمال إفريقيا.

وحدة اللغة: وذلك بسيادة اللغة اللاتينية في غرب أوربا وانتشار اللغة اليونانية في الشرق، وهذا ما أدى إلى وجود تجانس بين مختلف الأقاليم من الناحية الثقافية.

تمتع المواطن الروماني بحقوق المواطنة الرومانية خصوصاً بعد صدور مرسوم كراكلا سنة 212 وهذا ما زاد في التجانس والترابط بين المواطن والسلطة العليا.

كانت الامبراطورية الرومانية تحرص على جلب ولاء الشعب في مختلف الأقاليم

وبالإضافة إلى كل هذه عناصر الوحدة التي ذكرنا فإنه لم تظهر خلل هذه الفترة 138-192م ضغط البرابرة على الحدود و لم يكن عبء الضرائب ثقيلاً على المواطنين كما كان الرخاء المادي عاماً بين الناس مما أدى إلى ارتفاع مستوى حياة الطبقة الوسطى.

كان التسامح يسود الحياة الاجتماعية و لم يظهر الاضطهاد الديني بعد وكانت السطلة ار سمية تسمح باستعمال اللغات المحلية.

تمثال للإمبراطور الروماني كراكلاّ


Encyclopédie Encarta, Bridgeman Art Library, London/New York

3-عناصر الضعف في الامبراطورية الرومانية:

تغرات داخلية: ظهرت بعض الثغرات الداخلية في الامبراطورية الرومانية وذلك منذ أواخر القرن الثاني الميلادي ويمكن تلخيص ناصر الضعف هذه في المحاور التالية:

- عدم تغلغل تأثير الحضارة الرومانية بصورة منسجمة بين مختلف رعايا الامبراطورية فكان كل فريق من السكان يحافظ على تراثه ولغته وعاداته وكانت قبائل الرعاة في المناطق الشمالية والغربية تعيش مستقلة عن تأثير الغزاة الرومان.

- ساهمت الحروب الأهلية خصوصاً في بلاد اليونان وإيطاليا في إنقاص كثافة السكان في الغرب وزيادة احواله سوءاً فضلاً عما ترتب على الأوبئة وسوء الحياة الاقتصادية من إنقاص عدد السكان في هذه المنطقة من أوربا.

- اشتدت في هذا الوقت وطأة الجرمان على الحدود الشمالية والغربية في شرق غالة والأقاليم الواقعة جنوب نهر الدانوب واشتدت الضرائب على الرعايا الرومان الذين لجأ كثير منهم إلى الأمراء الجرمان.

- وفي هذا الوقت كانت بعض الولايات ذات التراث القديم مثل هلنستيا تخلع سلطة الغزاة الرومان وتترقب الفرص للانفصال عن الامبراطورة الرومانية وساع على ذلك نمو الآداب ومحاولات بعث الحضارات الراكدة.

وعلى الرغم من ان ماركوس اوريوس 161-180م يعد من أنبل الأباطرة بحكم اخلافه وانتمائه إلى مدرسة الرواقيين الفلسفية وبحكم نشاطه وأدبه وعحمسه لحمياة الامبراطورية بالرغم من كل ذلك فإن عهده يمثل نهاية عهد الاستبداد المستنير وبداية تداعي الرخاء الروماني واضمحلال العظمة الرومانية وكذلك كثرة سفك الدماء وبداية تغلغل البرابرة في الأراضي الرومانية وخصوصا على الحدود الشمالية الشرقيةلإيطاليا حتى أن هذا الامبراطور مات في معسكره الحربي على نهر الدانوب وهو يقاتل في دفع البرابرة عن حدود الامبراطورية.

- زادت الأمراض والأوبئة بين الموطنين خصوصا في بلاد اليونان وإيطاليا منذ عام 166م عقب عودة أفيديوس كاسيوس العسكرية من الشرق وكان فتك هذه الأوبئة بالإيطاليين شديد ولم يعد في إيطاليا ذاتها وروما خصوصاً سوى قليل من السلالات القوية العريقة. وخلال القرن الثالث الميلادي لم يعب المنصب الامبراطوري قاصراً على الرومان وحدهم بل كان كثيرا ما يتولى منصب الامبراطور سوري أو عربي أو إفريقي*

* هذا الامبراطور هو سبتيموس سفروس الذي حكم بين 193-211م

ثانياً. الأخطار الخارجية: زاد ضغط البرابرة خلال القرن الثالث الميلادي على خطوط الدفاع للامبراطورية الرومانية واغ هذا الضغط قمته عند اقتراب منتصف القرن الثالث إذ قام القوط بنهب بلاد اليونان كما أخضعوا لسلطتهم شبه جزيرة القرم وخربوا بعض المدن الزدهرة على شواطئ البحر الأسود في آسيا الصغرى كما تكونت تحالفات من القبائل الجرمانية كانت تهدف إلى انتزاع الأقاليم الرومانية في أوربا فقد زحف الفرنجة من ألمانيا إلى جوف إسبانيا ونهبوا مدينه تاراجونا بينما أغار السكسون على سواحل بريطانيا وغالة ، وهي فرنسا الحالية تقريباً، ونهبوهما كما عاثت قبائل الأماني فسادا في غالة فأحرقوا وخربوا بعض جهات وادي نهر الرون ووادي نهر البو.

- ظهر خطر الفرس الساسانيين في إيران عام 227م في غرب آسيا فقد اجتاحوا بلاد الشام ووصوا إلى بحر إيجه في اليونان ونجح الملك الفارسي شابور في سجن الامبراطور الورماني فليريان وهكذا أصيبت الامبراطورية الومانية بكارثة عظيمة وكان ذلك سنة 260م. كما وقعت مدينة إنطاكية العريقة التي كانت معقل السيادة الومانية في الشرق في يد الفرس مرة ثم في يد سبتيميا زنوبيا أميرة تدمر مرة اخرى.ثم إن قيام دولة تدمر داخل كيان الامبراطورية الرومانية يمثل في حد ذاته صورة الضعف والاضمحلال للامبراطورية الرومانية في ذلك الوقت، فقد امتد نفوذ تدمر من خليج العقبة بالأردن جنوبا إلى جبال طوروس شمالاً، وبسطت هيمنتها إلى سوريا والجزيرة بين دجلة والفرات شمالاً وبلاد العرب وهددت مصر وآسيا الصغرى وحافظت على استقلالها حتى أخضعها الامبراطور أورليان 270-275م.

المحاضــــرة الثالثــــة

بدايات انقسام الامبراطورية الرومانية 284-305م

تمثـــل الفتـــرة بـــين 270-284م أي إلى غايـــة تـــولي الامبراطـــور الرومـــاني دقلـــديانوس ســـدة الحكـــم مرحلـــة جـــادة في تـــاريخ الامبراطوريـــة الرومانيـــة وكان الأباطرة خلالها قد حـــاولوا دفـــع الأخطـــرا الـــتي كانـــت تهـــددها في كـــل مرة كما طـــردوا البرابـــرة وراء الحـــدود الرومانيـــة وأعـــادوا موقتـــا الوحـــدة إلى الامبراطورية الرومانيـــة وتوجـــت هـــذه المرحلـــة بتـــولى الامبراطـــور دقلـــديانوس الحكم سنة 284م وهـــذا الحـــدث ســـتتراتب عنـــه نتـــائح هامـــة بالنســـبةلتاريخ الامبراطورية في عصورها المتأخرة.

دقديانوس diaclécien حياته وإنجازاته الحضارية

ينحدر دقلديانوس مـــن أســـرة فقـــيرة في إقلـــيم إليريـــا القديمـــة بالســـمال الغـــربي لشبه جزيرة البلقان وقـــد انخـــرط في الجـــيش الرومـــاني وشـــغل بعـــض الوظـــائف الصغيرة في غالـــة ثم ارتقـــى إلى حكـــم ماســـيا في البلقـــان ثم إلى رتبـــة القنصـــل ثم إلى قيادة الحـــرس الامبراطـــوري وهـــي وظيفـــة هامـــة ثم مـــا لبـــث أن عـــين قائـــداً علـــى الجيـــوش الشـــرقية والغربيـــة ومـــع أن دقلـــديانوس اشـــتهر بكونـــه رجل دولة وسياسة اكثر مـــن كونـــه رجـــل حـــرب غـــير أن معاصـــريه أعجبـــوا بـــه ورفعـــوه إلى مرتبـــه الأبـــاطرة العظـــام حـــتى اعتـــبره بعضـــهم مؤسســـا لا مبراطوررية جديدة مثله في ذلك مثل اوغسطس.

وقد أدرك دقلديانوس بفكره الثاقب أمراض الامبراطورية فحاول أن يقضي على الطموح والمنافسة في كرسي العرس من طرف العسكريين فقرر أن يتولى بنفسه قيادة الجيش في الحملات الهامة وقصد بذلك أن يحرم القادة العسكريين من تحقيق انتصارات باهرة تريهم بالتطلع إلى منصب الإمبراطور. كما أدرك أن الإشراف على شؤون الدفاع عن الامبراطورية مهمة ثقيلة لا يستطيعها رجل واحد ولهذا قام دقلديانوس بوضع نظام جديد في الحكم خالف به نظم الامبراطورية منذ قيامها أيام أوغسطس فقد قسم الامبراطورية إلى قسمين كبيرين بواسطة خط عمودي يمتد من الشمال إلى الجنوب عبر البحر الأدرياتيكي واختار زميلاً له ورفيق سلاح ليكون شيكا له في الحكم ولكن ذلك لم يكن كافيا للقضاء على الفتن وكبح جماح القادة الطامحين في العرش. كما أن اتساع الامبراطورية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً أدى إلى صعوبة التحكم في الأمور وحماية الحدود وخصوصاص مع كثرة الولايات وثقل الإدارة فاضطر دقلديانوس وزميله إلى الاعتراف بقائدين آخرين كإمبراطورين وشريكنين لهما في الحكم ولكن كلا منهما منح لقب قيصر دلالة على أنه أقل شأنا من دقلدينونس وشريكه و لم يكونا سوى مساعدين.

- رأى دقلديانوس أن روما لمن تعد صالحة للبقاء كعاصمة وحيدة للامبراطورية فاتخذ عاصمة جديدة في الشرق هي نيمقوميديا على الشاطئ الآسيوي للبوسفور وذلك قبل بناء القسطنطينية وأقام بها وجعلها مركزاً لحكمه وكان ذلك بدافع إدراكه بأن ميزان القوى بدأ يميل لصالح الأقاليم الآسيوية والشرقية في الإمبراطورية وذلك بفضل ثرواتها وغناها وقوة الكثافة السكانية فيها وكذا تمركز المدن الهامة في أرجائها ولهذا نجد أن دقلديانوس استأثر لنفسه بحكم تراقيا ومصر وأقطار آسيا الغنية.

2- الإصلاحات الإدارية:

كان دقلديانوس كما ذكرنا رجلاً إدارياً فحاول تأمين مركز الامبراطورية وهو العاصمة ومحاربة الترعة الانفصالية وإصلاح أحوال الشعب وأهم عمل قام به هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وأعاد تتيب الولايات وتنظيمها فقسم الامبراطورية إلى أربعة أقاليم كبرى هي:

ولاية غالة: وتشمل بريطانيا وغالة وإسبانيا والمنطقة المعروفة اليوم باسم المغرب الأقصى.

ولاية إيطاليا: وتشمل المنطقة الواقعة بين نهر الدانوب والبحر الأرياتيكي بالإضافة إلى إيطايا والأقاليم المعروفة الآن بالجزائر وتونس وطرابلس.

ولاية إليريا: وتشمل داشيا ومقدونيا وبلاد اليونان.

ولاية الشرق: وتشمل بقية أقاليم الإمبراطورية وهي تراقيا وآسيا الصغرى والشام ومصر.

ثم انقسمت هذه الولايات إلى وحدات إدارية اصغر وألأصبح الحاكم في كل وحدة إدارية مسؤولاً أمام الحاكم الأعلى وفي النهاية يصبح عدد من الحكام العموميين مسؤولين أمام دقلديانوس نفسه الذي كان له الحق في غزلهم أو تعيينهم8. وكان هذا الشكل الهرمي للجهاز الإداري في الامبراطورية الرومانية الذي وضعه دقلديانوس يسهل سرعة الإجراءات وكان يضمن الدقة في العمل الإإداري ويجعل السلطة تتركز في يد الامبراطور في نهاية الأمر وفي ذلك ضمان لهيمنته على شؤون البلاد والقضاء على عوامل الفرقة والانقسام.

3- الإصلاحات الإدارية:

قام دقلديانوس بإنشاء قوة عسكرية متنقلة لحماية حدود المملكة أي الليمس وأطرافها من هجمات البرابرة وكان لهذه القوة أثر فعال في رد الاعتداءات وإضافة إلى هذه القوة المتحركة كان هناك جيش أخر

[8] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص.44

يتكون من فرق مرابطة على حدود الدولة*. واهتم دقلديانوس أيضاً بأمن الطرق الرومانية وحراستها. ومما يذكر أيضاً بشأن إصلاحات دقلديانوس العسكرية أنه قام بإدخال أعداد هائلة من الجرمان والبرابرة في الجيش حتى يذكر أن معظم فرق الخيالة كانت من الجرمان وكلفت قوات جرمانية مرتزقة بالدفاع عن الحدود بإشراف قيادات رومانية ودخل الجرمان أيضاً في الحرس الإمبراطوري وتدرجوا في وظائفه حتى وصلوا مراتب القيادة خصوصاً وأن الامبراطور لم يشترط للوصول إلى القيادة سوى الشجاعة والحنكة في القتال والإخلاص للإمبراطور.

ورغم أن دخول العنصر الجرماني في الجيش الروماني وتولي كثير من عناصره لمراكز القيادة سيؤدي مؤقتاً وفي مرحلة قوة الإمبراطورية إلى نوع من الأمن والاستقرار إلا أن هذا التواجد الجرماني في مراكز القيادة سيؤدي بعد ضعف الإمبراطورية إلى نتائج وخيمة على مستقبل الإمبراطورية.

الإصلاحات المالية: حاول دقلديانوس إصلاح النواحي المالية والاقتصادية وأول عمل بدأ به هو سك العملة الجديدة التي تالت ثقة التجار والأهلي الرومان كما اهتم بحماية الفقراء من جشع المستغلين وثبت أسعار السلع الأساسية وحدد الأجور والمرتبات منعا للاستغلال كما حاول التخفيف من عبء الضرائب وقام بعملية مسح للأراضي الزراعية وحصرها وتقدير الضرائب عليها بطريقة عادلة.

الجانب الروحي والديني في الإمبراطورية الرومانية

---

*يذكر أن عدد هذه الفرق المرابطة بلغ في عهد دقلديانوس مائتين وخمسين 250 ألفاً من المشاة و إحدى عشرة 11 ألغاً من الخيالة أو الفرسان هذا إضافة إلى الرحس الجمهوري المكلف بحماية الإمبرطور نفسه.

1- مكانة الفلسفة: كان هناك فراغ روحي كبير بين أصحاب الفكر وذوي العقول المستنيرة وذلك بعد فشل عبادة الإمبراطور والوثنية في إشباع نهمهم الروحي وهذا ما أدى إلى اتجاه الناس نحو الفلسفة وهكذا صار للفيلسوف في القرن الثاني الميلادي مترلة سامية بين الناس باعتباره ناصحا روحيا وشافيا للآلام النفسية، وصارت مهمته تشبه مهمة رجال الدين. وقد تمسكت الطبقات العليا المثقفة بالرواقية stoicism وذلك بما تنطوي عليه من الأخلاق والإيمان بكل الآلهة كما اعتقدت في وجوب اتخاذ التصوف الأفلاطوني وكذلك الأفلاطونية الحديثة والغنوصية.

2- الديانات الشرقية:اتجه العالم الروماني باهتمام متزايد نحو عبادات الشرق المتدفقة بالحيوية مثل عبادة إيزيس من مصر وعبادة إله السماء وإله الشمس من سوريا وعبادة متراس إله الشمس المحارب ومخلص الإنسان من فارس بل إن الإمبراطور ماركوس أورليوس سيد معبدا للإله الفارسي ميتراس وقرر الإمبراطور أورليان جعل عبادة الشمس ديناً رسمياً للدولة ولكن هذه العقائد لم يكتب لها البقاء طويلاً.

3- الديانة المسيحية: ووسط هذه الفوضى الدينية بدأت المسيحية تظهر وتتفوق، ففي عهد الإمبراطور أورليان كانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً في الشرق ورسخت جذورها في إيطاليا وتغلغلت في روما نفسها حتى صارت خطراً كبيراً على الديانة الرسمية للدلوة وهي عبادة الإمبراطور وعبادة الشمس وخصوصاً بعد اعتناق عدد من أفراد الجيش للمسيحية، وهذا ما أدى بالدولة إلى كراهية المسيحيين وإلى إقدام السلطات الحاكمة على اضطهادهم مثلما حدث على عهد كل من

الإمبراطور دكيوس249-251م والإمبراطور فاليريان 253-260م حين تعرض المسيحيون لأشد أنواع الاضطهاد9. وفي نفس هذا الإطار كره دقلديانوس المسيحية التي ظهرت في أوربا كعقيدة جديدة ونظام وافد من الشرق خصوصا وأن هذه الديانة بدأت تدعو أتباعها إلى عبادة إله غير الإمبراطور ثم ازداد سخطه عليها حين بدأت تظهر تطرفا وبدأت تخير أتباعها بين الإخلاص للمسيح أو الإخلاص للإمبراطور وخصوصاً حين تعدى نطاق تأثيرها في المجتمع إلى التأثير في الجيش، وحين قضت على ولاء الجند للإمبراطور وصارت عبارة عن دولة داخل الدولة وشكلت جماعات سرية لا تقيم وزناً لنظام الدولة وتقاليدها.

ويذكر أن المسيحية كعقيدة تسربت إلى أفراد من البلاط الإمبراطوري وإلى بعض أفراد أسرة دقلديانوس نفسه وهذا ما جعل الإمبراطور يشرع في اضطهاد عنيف للمسيحية وأتباعها قبل سنوات قليلة من اعتزاله للحكم. ففي سنة 302م بدأت حركة اضطهاد كبيرة للمسيحيين جرى بمقتضاها طردهم من البلاط ومن صفوف الجيش ونفيهم إلى جهات نائية وحرمانهم من حقوق المواطنة ومنعهم من تولى الوظائف الإدارية وحرق كتبهم المقدسة وهدم كنائسهم وإصدار قرار يحرم عتق الأرقاء منهم وتبع ذلك حركة تعذيب عنيفة في سنة 304م جرى فيها إعدام كثير من المسيحيين وإذاقتهم ألواناً من العذاب الأمر الذي أدى بكثير منهم إلى التخلي عن عقيدتهم. وهكذا كانت السنوات الأخيرة من حكم دقلديانوس فترة محنة كبيرة للمسيحيين وقد حدث مثل ذلك في شمال إفريقيا أيضاً حيث عرف الأهالي محاكمات وعمليات تعذيب وحرق مؤلمة10.

ولكن القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية هو الذي عانى القسط الأكبر من الاضطهاد الديني وذلك بحكم تركز المسيحيين في الشرق مهد

[9] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص ص.22-28

[10] ينظر: شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج.1، ترجمة: محمد مزالي وآخر، الدار التونسية للنشر، تونس، ص.

المسيحية الأول. غير أن هذه الحركة العنيفة من الاضطهاد لم تلبث أن خفت حدتها عندما قرر دقلديانوس اعتزال السلطة سنة 305م بعد أن صار شيخاً ولازمه المرض المزمن، وبعد أن أكمل عشرين عاماً على رأس الإمبراطورية، وكذلك بوفاة جاليروس عدو المسيحية اللدود سنة 311م.

وإذا كان مسلك دقلديانوس تجاه المسيحية قد اتسم بقدر كبير من العنف والقسوة فإن ذلك قد أدى إلى انقلاب خطير في الحياة الدينية للأمبراطورية ووضعها على أعتاب مرحلة جديدة على عهد خليفته قسطنطين الذي جعل الإمبراطورية حصنا للمسيحية وملاذا لأتباعها والذي ترأس أول مجمع ديني مسكوني في تاريخ المسيحية وتبنى وجهة نظر رجال الكنيسة وجعل من المسيحية الوجه اللامع للحقبة الجديدة في بيزنطة.

المحاضرة الرابعة

غزوات الجرمان

يؤكد المؤرخون علي حقيقة مفادها أن هناك ثلاثة عوامل سيطرت على مصير التاريخ الأوربي حتى نهاية القرن الثالث الميلادي وهي: الحضارة اليونانية والامبراطورية الرومانية والديانة المسيحية. ولكن تغلغل الجرمان في جوف الامبراطورية الرومانية غير مجرى التاريخ الأوربي الوسيط جذرياً.

الكلت:

سبق للامبراطورية الرومانية أن تعرضت لغزوات شرسة من طرف البرابرة ومن بينهم الكلت Les Celtes الذين هم أحد عناصر الجنس الهندو-أوربي الذين نفدوا إلى أوربا في هجرهم نحو الغرب منذ أزمنة سحيقة. وكاوا في البداية قد نزلوا في الغابات الواقعة في شمال أوربا والجهات المعروفة الآن بجنوب ألمانيا ووديان أعالي الدانوب وأواسط الراين حتى نهر الألب شرقاً، غير أهم اضطروا تحت ضغط الجرمان من الشمال إلى ترك مواقعهم في هذه المناطق والانتشار جهة الجنوب الغربي والجنوب الشرقي وذلك منذ أوائل القرن الرابع الميلادي فترلوا في غالة أي فرنسا الحالية والجزر البريطانية بل اضطروا إلى الرحيل إلى إيطاليا ذاهّا بلاد اليونان وآسيا الصغرى فصاروا بذلك منتشرين في منطقة واسعة تمتد بين شواطئ البحر الأسود والمحيذ الأطلسي.

ولكن يذكر المؤرخون أن الكلت ما لبثوا أن ذابوا وسط محيط العالم الروماني وفقدوا كثيرا من مقوماهم الشخصية بل يذكر أهم اصطبغوا بالصبغة الرومانية واعتنقوا المسيحية وصاروا من صمن الرعايا الرومان رغم أنه قد ظلت بعض صفاهم المميزة ومقوماهم اشخصية في الجزر البريطانية وأيرلندا بالنظر إلى تطرق موقعها وبعدها النسبي عن ائرة التأثير الروماني المحض11. ولكن يذكر الدكتور نعيم فرح أنه بعد أن احتل الرومان إنجلترا تأثر الكلت بالحضارة الرومانية وسلكوا مسارها ولكن هذا الرأي لا ينفي أن الكلت حافظوا في هذه المنطقة بالذات على بعض من خصائصهم التي تميزوا بها منذ القرن الأول الميلادي كنظام الطبقية والنمط الزراعي12.

الجرمان: أصلهم من الجنس الآري الذين سكنوا آسيا الوسطى قديما ويذكر أن الغاليين Gaulois هم الذين أطلقوا عليهم تسمية الجرمان

[11] م.م. مرسي الشيخ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1995، ص ص.73-74

[12] نعيم فرح، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دمشق 1987، ص.17

ويعنـــون بهـــا جـــيران لأن الجرمـــان كـــانوا يتمركـــزون وراء نهـــر الـــراين13. وقد تحدث عنـــهم يوليـــوس قيصـــر وقـــال أنهـــم كـــانوا يســـكنون حـــول بحـــر البطيـــق وذكـــر فرقـــا منـــهم وهـــم القـــوط الرغبيـــون والقـــوط السشـــرقيون والونـــــدال والآلان والفرنجـــــة واللومبـــــارديين والأنجلوساكســـــون والأمـــــان والنورمانـــــديون ثم زحفـــوا تـــدريجيا واســـتقروا علـــى حـــدود الامبراطوريـــة الرومانيـــة14. وقـــد وصـــف يوليـــوس قيصـــر في القـــرن الأول قبـــل المـــيلاد كثيرا عن حملاتـــه في غالـــة وأكثـــر مـــن وصـــف الجرمـــا وذلـــك في المـــذكرات الـــــواردة في كتابـــــه De bello Gallico 15. وممـــــا ورد في كتابـــــات تاكيتوس في أوائل القـــرن الثـــاني المـــيلادي تتضـــح صـــورة الحيـــاة الـــتي كانـــت تحياهـــا العناصـــر مـــن البرابـــرة وطـــرق معيشـــتها وأســـاليبها في الحيـــاة العامـــة وجياتها الحربية. فتشـــير الروايـــات إلى أنهـــم قـــوم مـــن البـــدو الرحـــل يعشـــقون الحـــرب ولهـــم شـــغف كـــبير بالصـــيد ولا يميلـــون كـــثيرا إلى امتـــهان الزراعـــة وكانت لهم فضـــائل كـــثيرة أهمهـــا كـــرم الضـــيافة واحتـــرام العهـــد والشـــجاعة الفائقة والنظافة والعفـــة. وكـــانوا يتخـــذون مـــن جلـــود حيـــوان الرنـــة لباســـا يغطي جانبا ضـــئيلا مـــن أجســـادهم. ويـــذكر أنهـــم كـــانوا يســـتحمون ذكـــوراً وإناثـــا في الأنهـــار، وغـــذاؤهم اللحـــم واللـــبن والجـــبن وكـــاوا يتجولـــون باستمرار خـــلال الغابـــات الكثيفـــة والمســـتنقعات وكـــاوا دومـــا يرتحلـــون مـــن مكان إلى آخر ولم يكـــن لهـــم ذخـــل إلا مـــا كـــانوا يحصـــلون عليـــه بواســـطة الحـــرب والقتـــال16. أمـــا بلادهـــم جرمانيـــا فقـــد وصـــفها تـــاكيتوس بكونهـــا منطقـــة تحوطهـــا الغابـــات الكثيفـــة وتغطيهـــا المســـتنقعات وانعكســـت طبيعـــة هذه الـــبلاد علـــى ســـكانها مـــن الجرمـــان وخصوصـــا في طبـــائعهم وميلـــهم إلى

[1313] **نهر الراين**: يعد من الأنهار الداخلية في أوربا يبلغ طوله 1320كلم ويقطع مسافة تقدر 244600 كلم وينبع من شرقي سويسرا ويشكل جزءا من حدود سويسرا والنمسا وفرنسا وألمانيا، ويعبر ألمانيا وهولندا باتجاه بحر الشمال.

ينظر: نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوربا، ج.1، دار الفكر، دمشق1982، ص.16

[14] نعيم فرح، المرجع السابق، ص.20

[15] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص.20

[16] Tacitus, Germanic institutions, MED. WORLD, pp.48-60

الغلظة. وكـــان الجرمــــان ذوي أجســـام فارعـــة وبشـــرة ناصـــعة البيـــاظ وعيـــون حـــادة زرق وشـــعر أشـــقر مرســـل وكـــانوا يشـــربون الخمـــر حـــتى الثمالـــة ويعشـــقون الشـــجار والمقـــامرة وكـــذلك العنـــاء ويخلصـــون إخلاصـــا شـــديدا لشيخ العشيرة وكانت لهـــم شـــهوة جامحـــة نحـــو المغـــامرات الحربيـــة.ومـــن أهـــم مميـــزاقم الاجتماعيـــة احتـــرامهم لربـــاط الأســـرة القـــوي ورعايتـــهم للمـــرأة وكرههم لتعـــدد الزوجـــات وحبـــهم للإكثـــار مـــن الدريـــة فضـــلاً عـــن تمتـــع الأب بسلطة تامة علـــى زوجتـــه وأولاده وهـــذه الصـــفات لم تـــتغير حـــتى بعـــد اخـــتلاطهم بالرومـــان. وكـــان للجرمـــان عـــادة الإكثـــار مـــن الأولاد في الأســـرة الواجـــدة وهـــذا مـــا لأدى إلى تفـــوقهم علـــى الرومـــان تفوقـــا عـــدديا حاسمـــا حـــين انـــدلعت الحـــروب بـــين الفـــريقين واشـــتد القتـــال. وكانـــت العشـــيرة تتـــألف مـــن مجموعـــة مـــن الأســـرات ذات القرابـــة، وتمتـــع رئـــيس العشـــيرة بمكانـــة ممتـــازة وســـلطة تكـــاد تكـــون مطلقـــة وحصـــل مـــن رفاقـــه المحاربين على يمين الـــولاء وعهـــد بالـــدفاع عنـــه وحمايتـــه وكـــان هـــو بـــدوره يبالغ في إظهار كرمـــه وســـخائه نحـــو رفاقـــه. ومـــن مجموعـــة العشـــائر المختلفـــة كانـــت تتـــألف القبيلـــة الكـــبرى أو الفـــرع الجرمـــاني الكـــبير17. وعـــرف الجرمان نظام الطبقـــات حيـــث كـــان هنـــاك ثلاثـــة طبقـــات اجتماعيـــة: طبقـــة النبلاء وطبقة الأحـــرار وطبقـــة العبيـــد.فبينمـــا كـــان العبيـــد يقومـــون بأعمـــال الفلاحـــة وزراعـــة الأرض وغيرهـــا مـــن الأعمـــال اليوميـــة اقتصـــر دور النـــبلاء وهـــم صـــفوة المجتمـــع الجرمـــاني علـــى بممارســـة الحـــرب والتمتـــع بشـــرف الانتســـاب للفئـــة المميـــزة في المجتمـــع وهـــي فئـــة المحـــاربين ولم يحتـــل الأحـــرار الحرمان مترلة هامة في هـــذا المجتمـــع فلـــم يزيـــدوا كـــثيرا عـــن طبقـــة الفـــالحين من العبيد وإنتميـــزا عنـــهم بملكيتـــهم قطعـــا صـــغيرة مـــن الأرض لأن الحريـــة في المجتمع الحرمان ارتبطت إلى حد كبير بملكية الأرض.

[17] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص ص.78-79

وكانت حياة القبائل الجرمانية حافلة بالحروب فيما بينها، حتى يذكر أن الجرمان صارروا جموعا من القبائل والعشائر المتناحرة فيما بينها كما أن نظرتهم لجارتهم الامبراطورية الرومانية اختلفت من طرف إلى آخر، فنظر إليها بعضهم على أنها عدو تجب محاربته في حين نظر إليها البعض الآخر على أنها موطن يرجى استيطانه ومصدر للرزق يمكن الإفادة منه ببذل الخدمة العسكرية18.

اصطدامهم بالرومان: اصطدمت الامبراطورية الرومانية بمجموعتين كبيرتين انقسم إليها الجرمان بعد انسحابهم من شبه جزيرة اسكندناوه إلى جوف القارة الأوربية وقد ضمت مجموعة الجرمان الغربيين كلا من الفرنجة الإنجليز والسكسون والسويفيين والألماني وضمت مجموعة الجرمان الشرقيين القوط والوندال والجبيداي والبرجنديين واللمبارديين والروجيين وغيرهم..وفي حين بقي فريق من الجرمان في شبه جزيرة اسكندناوة جيث تفرعت الأمم السويدية النرويجية الدانية الحالية وصل فريق في رحلته جنوباً بالغرب عبر ألمانيا سعياً وراء العيش والجو الدافئ أو حبا في المغامرة والحرب إلى حوض نهر الراين في حين اتجه فريق ثالث وجهة شرقية فوصل إلى ضفاف نهر الدانوب19 وسواحل البحر الأسود.وهذان التياران من تيارات الهجرة الجرمانية هما اللذان اصطدمت بهما الامبراطورية الرومانية.

أسباب الصدام: من بين الأسباب التي دغعت الجرمان إلى التحرك إلى تخوم الامبراطورية الرومانية يذكر مرسي الشيخ: الرغبة في الاستفادة من مظاهر الحضارة الرومانية جرياً على قاعدة ابن خلدون الشهيرة: المغلوب مولع باتباع الغالب في مأكله ومشربه وسائر عاداته20وكذلك

---

[18] نفسه، س.82

[19] **الدانوب**: ثاني أطول أنها رأوربا بعد نهر الفولجا يجري الدانوب على طول 4860 كلم من منبعه بألمانيا إلى مصبه في البحر الأسود في أوربا الشرقية وتبلغ مساحته نحو 815800لكم.

[20] ابن خلدون، المقدمة، ص.

طمعاً في السيطرة على ثروات الأراضي الرومانية وخصبها وكذلك التغيرات التي حدثت في المنطقة من حولهم وأسهمت في دفعهم إلى جوف الامبراطورية الرومانية وذلك منذ أواخر القرن الثاني الميلادي،ومن بين هذه التغيرات جوانب اقتصادية تتمثل في ضيق سبل العيش في بلادهم نظراً لتزايد أعدادهم وفقر أراضيهم وكونها عبارة عن مساحات شاسعة من الغابات والمستنقعات هذا إضافة إلى تعرضهم لكوراث الطبيعة من جفاف ومجاعات وفيضانات وحرائق في الغابات وصواعق. وهناك جانب آخر من هذه التغيرات له طابع عرقي ويتمثل فيما حدث من ضغط قبائل أخرى على الجرمان كالصقالبة والسلاف من جهة الشرق حملتهم على التحرك والزحف باتجاه مواطن أخرى عبر نهري الراين والدانوب ويتطلعون في حسد إلى الأراضي الخصبة والمدن العامرة على الضفة الأخرى للنهرين الكبيرين[21]. غير أن تحرك فريق من الجرمان الشرقيين وهم القوط وزجفهم إلى داخل الامبراطورية الرومانية كان نتيجة لتحرك شعب آسيوي آخر أشد ضرواة وأكثر وحشية وهم الهون[22]. حيث هزموا القوط الشرقيين وراحوا يدفعونهم وغيرهم من الجرمان إلى داخل الإمبراطورية الرومانية. بدأت العلاقات بين الجرمان والإمبراطورية الرومانية بمرحلة من السلم والتعاون بين الجانبين استغرقت حوالي قرنين من الزمان أي إلى نهاية القرن الثاني الميلادي وبالتحديد نهاية عهد الامبراطور ماركوس أورليوس سنة 180م.ولكن الأمور أخذت في التبدل باتجاه العداوة ابتداء من أواخر القرن الثاني حين عاثت قبائل الجرمان فساداً في حوض نهر الدانوب وأخذت هجماتهم في هذه المرحلة طابع الهجمات المتفرقة والعمليات الحربية غير المنظمة وغير الشاملة. وقد تنازلت الامبراطورية الرومانية للقوط عن إقليم داشيا

---

[21] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص ص.83-84

[22] **الهون**: هم قبائل تركية مغولية تحركوا في القرن الرابع الميلادي من منغوليا نحو الغرب فخضعت لهم عدة قبائل منها: الآلان والقوط الشرقيون وغيرهم من البرابرة..

بالبلقــان وذلــك لتــأخير تغلغلــهم في أراضــيها. وفي أواخــر القــرن الرابــع المــيلادي توجهــت الامبراطوريــة الرومانيــة للإفــادة مــن هــذه العناصــر المتحمســة الــوافرة النشــاط وعملــت علــى اســتخدامهم كجنــد مرتزقــة في الجيــوش الرومانيــة وهكــذا صــار كــثير مــن القــادة العســكريين في الجــيش الروماني تجري في عــروقهم دمــاء جرمانيــة وخصوصــا بعــد أن صــار التــزاوج بين الجانبين أمراً مألوفا في القرنين الثالث والرابع الميلاديين

الهجمات المنظمــة: تميــزت هجمــات الجرمــان أواخــر القــرن الرابــع المــيلادي بطــابع الهجمــات المنظمــة والهجــرات الجماعيــة الكــبيرة وانتــهي الأمــر إلى اســتقرار الجرمــان الــدائم داخــل حــدود الامبراطوريــة الرومانيــة وتأســيس ممالك جرمانية معروفــة ظلــت قائمــة فتــرات طويلــة لتصــبح أحــد العناصــر الهامة والمــؤثرة في التــاريخ الأوربي الوســيط. وقــد اســتقر القــوط الغربيــون في إقليم داشــيا مــن بــلاد البلقــان الــذي تنازلــت عنــه الامبراطوريــة الرومانيــة مرغمــة وذلــك نحــو قــرن مــن الزمــان بــين 275-375م وذلــك قبــل أن يعبروا إلى داخــل الامبراطوريــة الرومانيــة ويقيمــوا ممالــك مســتقرة ويقوضــوا نفــوذ الحكومــة الغربيــة وســلطاتها. وبعــد دخــول الهــون إلى داشــيا ســنة 376م وهزيمتهم لعشــائر القــوط الغــربيين وإجلائهــم عــن هــذه المنطقــة مــن البلقــان توســل القــوط الغربيــون إلى الإمبراطــور فــالتز Valens 364-378م أن يهبــهم ملجــأ يحتمــون بــه مــن خطــر الهــون فســمح لهــم هــذا الإمبراطــور بعبــور نهــر الــدانوب والالتجــاء إلى الأراضــي المهملــة في تراقيــا ومحاولــة استصــلاحها ويبــدو أن هــذا الإمبراطــور كــان يهــدف إلى الاستفادة من قبائــل القــوط الغــربيين خصوصــاً وأن القــوط الغــربيين اعتنقــوا المسيحية وتأثروا بالحضــارة الرومانيــة. ولكــن هــذا التصــرف مــن الإمبراطــور فالتز كانــت لــه انعكاســات ســيئة علــى أمــن الإمبراطوريــة الرومانيــة، إذ لم يقنع القــوط الغربيــون أن يكونــوا مجــرد مــواطنين خصوصــاً وأنهــم لا زالــوا يحافظون علــى طــابعهم القبلــي فأخــذوا يفرضــون ســلطتهم علــى الســكان

المجاورين وبدأوا يستولون لحسابهم الخاص على كل المنطقة إلى غاية نهر الدانوب وأعلنوا الثورة على الإمبراطور فالتر وهزموه في موقعة أدرنة سنة 378م ولقي حتفه على أيديهم وبهذا النصر الكبير بدأوا مرحلة هامة في علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية. وانتهز القوط الغربيون فرصة ضعف الإمبراطورية الرومانية بعد ثيودسيوس العظيم الذي عرف كيف يحقق فترة من السلم معهم دامت ثلاثة عشر سنة- وخصوصاً بعد انقسام الامبراطورية الرومانية إلى قسمين: شرقي وعاصمته القسطنطينية وغربي وعاصمته رافنا Ravenna[23] الأمر الذي أدى إلى تفتت وحدة الإمبراطورية وضعفها. وقد بادر القوط الغربيون بانتخاب ملك عسكري عليهم في سن الثلاثين ممتلئاً بالحماسة والجسارة وهو ألاريك الذي قاد عشائره من القوط الغربيين وهجم أثينا وتساليا واستولى على كورنثة وإسبرطة في بلاد اليونان وبدأ يعد العدة لغزو إيطاليا وتعرضت هذه الأخيرة لحصار القوط الغربيين ثلاث مرات حتى اضطرت في النهاية لفتح أبوابها لهم سنة 410م فاستباحتها جيوش ألاريك وعاثت فيها فساداً، وفكر هذا القائد الفذ في غزو إقليم شمال إفريقيا الذي كان يمد روما بالغلال وسار بقومه نحو جنوب إيطاليا لعبور البحر المتوسط ولك الموت عاجله إذ توفي في نفس العام. وعملت الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك على صرف الغزاة عن إيطاليا بمنحهم إقليماً آخر ووافق على ذلك القوط الغربيون لأنه لم يكن في خططهم ولا من مصلحتهم القضاء على الإمبراطورية الرومانية فمنحهم الامبراطور هونريوس إقليم لاكتين L'Aquitaine في جنوب غرب غالة في المنطقة الممتدة من نهر اللوار حتى حدود جبال البرانس Les Pérénés وكانت جموع الوندال والآلان والسويفيين قد غزوا غالة قبل ذلك فأرادت الامبراطورية الرومانية أن تضرب عصفورين بحجر واحد: إبعاد القوط الغربيين عن

---

[23] تزعزع في هذه المرحلة المركز السياسي لروما فلم تعد هي العاصمة السياسية للامبراطورية لم تعد حصنا للمسيحية.

إيطاليا ودفع الجماعات الأخرى وهي أكثر بربرية من القوط الغربيين عن غالة. و لم تمض سوى عدة سنوات حتى كان القوط الغربيون قد استقروا في المنطقة الواقعة بين نهري اللوار والجارون ومن بينها تولوز وبوردو وبواتييه وذلك قبل لأن يخرجوا جموع السويفيين والوندال عن إسبانيا ويقيموا بها مملكة مستقرة ظلت قائمة لفترة طويلة[24].

غزو الجرمان إفريقيا الشمالية: اضطر الوندال وهم فرع من الجرمان الشرقيين إلى ترك إسبانيا والتروح إلى شمال إفريقيا عبر البحر المتوسط سنة 429م تحت قيادة ملكهم جنسريق، وكان ذلك كما ذكرنا آنفاً تحت ضغط القوط الغربيين. وقد تم استيلاء الوندال على نوميديا وما يليها غرباً واتخذوا من بونة عاصمة مملكتهم واستغلوا في ذلك ضعف روما وتمزقها وكذلك اشتغال الرومان بحرب القوط. فلم يهمل جنسريق هذه الفرصة وذهب إلى قرطاجنة ففتحها من غير عناء واستولى على البروقنصلية وتم له بذلك الاستيلاء على تونس والجزائر ومراكش وذلك سنة 439م. وقد أقام جنسريق في إفريقيا دولة عظيمة حسب التقاليد الجرمانية التي لم يتردد في إدخال تغييرات عليها كلما اقتضى الأمر ذلك ولقد استقام لملك الونذال والآلان منذ سنة 442م ملك مطلق. ويرى مبارك الميلي أن سرعة احتلال الوندال للغرب هو مساعدة البربر لهم والسبب في ذلك- يقول الميلي- أنهم كانوا ينفرون من سلطة روما ويعشقون الاستقلال. ونظراً لكون الوندال أمة حربية متعصبة لمنهجه فإن أعمالهم كانت منحصرة في تخريب حصون الرومان وامتلاك ما كانواأخذوه عن البربر من أراض واضطهاد الأرثوذكس الروماني الترعة. غير أنه من الممكن القول أنه كانت للوندال نواح إيجابية بالنسبة إلى البربر وذلك من ناحيتين: من الناحية الاقتصادية أنه لم مكن كثيراً من الطبقات البربرية الفقيرة من عمال الأرض الأجراء والقبائل المطاردة

[24] م.م. الشيخ، المرجع السابق، ص ص.92-96

من استرداد أراضـيها الزراعيـة الـتي صـادرها الرومـان. أمـا الجانـب الثقـافي فقد قضـوا علـى الطبقـة الرومانيـة والمترومنـة وبالتـالي فقـد حـد وجـودهم ولو جزئياً من انتشار اللغـة اللاتينيـة والثقافـة الرومانيـة.وقـد قضـى الونـدال فترة احتلالهم لشمال إفريقيـا في سلسـلة مـن الحـروب والثـورات مـع البربـر وكان مصير الجيش الونـدالي هزيمـة سـاحقة سـنة 523م وطـردوا مـن شمـال إفريقيا رغم احتلالهم الـذي دام حـوالي قـرن مـن الزمـان فقـد سـقط حكـم الونـدال بـدخول القائـد البيزنطـي بليزاريـوس إلى قرطاجنـة وهزيمتـه للامبراطور الوندالي جليمار سنة 534م[25].

البرجنديون: وهم فـرع آخـر مـن فـروع الجرمـان الشـرقيين، ظهـروا علـى مسرح الأحداث في القـرن الثالـث المـيلادي وتقـدموا مـن موطنـهم الأصـلي في وادي المـاين في الجـزء الأوسـط مـن حـوض نهـر الـراين، وقـرب أوار القرن الرابـع الميلادجـي تحركـت جمـوعهم إلى الجـزء المعـروف حاليـاً باسـم بلجيكـا ولكنـهم اضـطروا تحـت ضـغط الهـون إلى شـق طـريقهم في غالـة بشـيء مـن العنـف حـتى اسـتقروا في سـافوي قـرب نهـر السـاوون سـنة 443م وكـان ذلـك بموافقـة الحكومـة الرومانيـة فشـكلوا بـذلك مملكـة أريوسية مستقلة أخـذت تتوسـع حـتى كـادت تبلـغ شـاطئ البحـر المتوسـط وصارت تشمل في سنة 498م كـل المنطقـة الواقعـة بـين جبـال الألـب ونهـر الرون ولكنـها لم تسـتطع أن تصـمد أمـام الفرنجـة الـذين وصـلوا إلى غالـة وأوقفوا توسعات البرجنديين في هذه الجهات[26] .

الهون: وهم كما سبق أن ذكرنـا عنصـر آسـيوي مـن جـنس المغـول وكـانوا قد نفذوا إلى جنوب شـرق أوربـا قـادمين مـن أواسـط آسـيا عـبر الـبراري والسـهوب الآسـيوية في أواخـر القـرن الرابـع المـيلادي. والهـون هـم أكثـر بربرية من العناصر السـابقة وكـانوا كلمـا مـروا بـبلاد خربوهـا. وقـد ظـل الهون يقيمون على شـواطئ البحـر الأسـود في المنطقـة المعروفـة حاليـاً بـالمجر

---

[25] ينظر: الطاهر عمري، دور بنى المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار، أرشيف ولاية قسنطينة1999م

[26] م.م. الشيخ، المرجع السابق، ص.100

منذ أواخر القرن الرابع حتى سنة 425م حين أخذوا يزحفون نحو البلقان. وحين تولى أتيلاّ حكم الهون سنة 433م بدأت مرحلة هامة في تاريخهم إذ سيطروا على معظم القبائل الجرمانية وغير الجرمانية المقيمة في حوض نهر الدانوب وكان فيهم القوط الشرقيون والصقالبة في جنوب روسيا. وحين قررت الإمبراطورية الرومانية وقف دفع الإتاوات الباهضة لأتيلا قرر هذا الأخير الزحف غرباً للاستيلاء على الجزء الغربي من الإمبراطورية نظراً لضعفها وعبث الجرمان فيها فعبر نهر الراين إلى غالة سنة 451م ونهب مدنها الكبيرة وقد تحالف إتوسيوس قائد الإمبراطورية الغربية مع القوط الغربيين الذين كانوا أعداءه قبل ذلك لصد هذا الخطر المشترك وكان لهم النصر على الهون في نهاية الأمر. وهكذا فإن هزيمة الهون في غالة سنة 451م وتراجعهم عنها كان أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لغرب أوربا قاطبة إذ قدر لها أن تنجو من وحشية هذا الشعب الذي تراجع إلى روما وعاث فيها فساداً سنة 452م وذلك قبل لأن ينسحب منها بسبب الأمراض ونقص المؤونة والخوف من انتقام الجيش الروماني.

أتيلا قائد



الهون

Figure 1

سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب: وصلت الإمبراطورية الرومانية إلى مستوى خطير من الضعف والاضمحلال خصوصاً بعد وفاة فالنسيان الثالث سنة 455م، وخصوصاً بعد أن عاث فيها الجرمان

فساداً بل إنهم أقاموا بها دويلات مستقلة داخل حدودها الرسمية وخصوصاً بعد أن سيطر على مصائرها قادة عسكريون تجري في عروقهم الدماء الجرمانية و لم يكن لهم أي اهتمام بالمحافظة على أمجاد روما وضمان سلامتها وأمنها[27]. وقد ظهر قائد شهير من الجرمان الشرقيين وهو إدواكر Odovacer قائد الإمبراطور الروماني الصغير روميلوس أوغسطولوس الذي أدرك سنة 476م أن لديه من القوة ما يمكنه من خلع الإمبراطور الغربي وإدارة شؤون إيطاليا وقد سلك طريقاً ديبلوماسية للوصول إلى هدفه إذ أعلن ولاءه للأمبراطورية الشرقية وارتبط بالتبعية لها وحصل من مجلس السيناتو عل موافقة شكلية فاتصل بالإمبراطور زينون لطلب تفويض بحكم إيطاليا في ظل التبعية للقسطنطينية وخلع الإمبراطور الغربي. ورحب الإمبراطور زينون بعودة إيطاليا وما بقي لها من نفوذ إسمي في الغرب إلى حظيرة الإمبراطورية الشرقية وهو الأمر الذي شجع أدواكر وخلع آخر الأباطرة الرومان في الغرب سنة 476م ونفاه إلى جنوب إيطاليا وإنفرد بتسيير دفة الحكم في إيطاليا ووضع نهاية لمجد الإمبراطورية الرومانية في الغرب وظل غرب أوربا دون إمبراطور حتى توج شارلمان سنة 800م. ويذكر المؤرخون أن هذا الحدث المتمثل في سقوط عاصمة الإمبراطورية الرومانية في الغرب صار حدا فاصلاً بين العصور القديمة والعصور الوسطى كما كانت له آثار سلبية بالنسبة لممالك الجرمان بغرب أوربا إذ ساعد على تطوير هذه الممالك واستقلالها وتحررها من أية ضوابط. وكان لهذا الحدث أثر ثالث تمثل في كونه عمل على تطوير البابوية في إيطاليا بعد أن أفسحت لها السلطة الرسمية المجال وذلك للحصول على ولاء الإيطاليين والالتفاف حول البابا وتفويضه الزعامة في غياب الإمبراطور

[2727] تذكر بعض المصادر أن الامبراطورية الرومانية تنبهت إلى خطر هؤلاء القادة ذوي الأصول الجرمانية فأعدمت بعضهم.إذ أعدم الامبراطور **فالنسيان الثالث** قبل وفاته بعامين القائد الشهير **إيثيوس** سنة 453م حين تطلع هذا الأخير إلى السيطرة على الإمبراطورية الغربية.

وصار الشعب الإيطالي ينظر إلى الكنيسة في روما على أنها الحصن الثاني للدفاع عن إيطاليا واستعادة مجدها وكان لذلك دون شك أبلغ النتائج بالنسبة لغرب أوربا بصفة عامة وتاريخ البابوية بصفة خاصة28.

القوط الشرقيون وإيطاليا: ينتمي القوط الشرقيون إلى فروع الجرمان الشرقيين وكاوا قرب منتصف القرن الرابع قد تركزوا بالجهات الواقعة في شمال البحر الأسود، لكنهم تعرضوا كما ذكرنا لخطر الهون حوالي سنة 453م وحينها هاجموا الهون ودمروا إمبراطوريتهم وأخذوا يلعبون دورهم الخاص كبقية القبائل الجرمانية، وبدأوا بالتجول في أقاليم البلقان وأخذوا يعيثون فساداً في بلاد اليونان وسببوا ضغطاً شديداً على القسطنطينية وقد صادر ثيودريك ملكاً للقوط الشرقيين سنة 480م. ولما تفاقم خطرهم خطرهم على البلقان رأى الإمبراطور الشرقي زينون أن يعهد إلى ثيودريك بإدارة شؤون إيطاليا ليبعده عن البلقان ويحدث الصدام بينه وبين أدواكر ويضعف بذلك الطرفين مرة وحدة. وقد نزل ثيودريك إيطاليا ودخل في معارك طاحنة مع إدواكر انتهت آخرها سنة 490 بهزيمة ساحقة لأدرواكر سنة 490م وتحطمت بذلك قواته. وسارع مجلس السيناتو في إيطاليا بتأييد ثيودريك والاعتراف به سيداً على إيطاليا وهكذا حل القوط الشرقيون في إيطاليا تحت زعامة ثيودريك وأقاموا هناك مملكة مستقلة في ظل التبعية الإسمية للإمبراطورية الشرقية، ولكنه لم تكد تمضي سنوات قليلة على وفاة أدواكر حتى نزلت قوات حستنيان العظيم بإيطاليا وانتزعها من القوط الرقيين وقضى على دولتهم نهائياً قرب منتصف القرن السادس الميلادي29.

الفرنجة وغالة: الفرنجة هم أحد عناصر الجرمان الغربيين الذين صاروا في القرنين الثالث والرابع قوة جرمانية كبيرة وانسابوا في شمال غالة مكونين مجموعتين كبيرتين هما الفرنجة البحريون أو الساليونSaliens والفرنجة

[28] م.م .الشيخ، المرجع السابق، ص ص.102-106

[29] نفسه، ص ص.108-109

البرّيـــون أو الريبوريـــون Ripuaires. وظـــل الفرعـــان مصـــدر خطـــر كـــبير علـــى ســـلطات الإمبراطوريـــة الومراينـــة في غالـــة فتـــرة كويلـــة وبعـــد ســـقوط الإمبراطوريـــة الغربيـــة ســـنة 476م بطلـــع الفرنجـــة البحريـــون للاســـتيطان في غالة ونجـــح كلـــوفيس زعـــيم الفرنجـــة البحـــريين ومؤســـس دولتـــهم أن يلحـــق الهزيمـــة بممثـــل الإدارة الرومانيـــة في غالـــة ســـنة 486م ويمهـــد للانتشـــار في الجهات الشمالية من غالـــة. ويعتـــبر كلـــوفيس هـــو مؤســـس البيـــت الميروفنجـــي والدولة الفرنجية التي عاشـــت طـــوال العصـــور الوســـطى وتولـــدت منـــها مملكـــة فرنســـا في التـــاريخ الأوربي الحـــديث. كانـــت قـــوة الفرنجـــة ترجـــع إلى جـــرأة وطمـــوح كلـــوفيس الـــذي لعـــب دوراً كـــبيراً في تـــاريخ فرنســـا ثم في تـــاريخ الغرب الأوربي ثانياً. وكـــذلك ترجـــع إلى حـــرص الفرنجـــة علـــى التوســـع فقـــط في المنـــاطق المجـــاورة لهـــم فظـــل موطنـــهم الأصـــلي في الحـــوض الأدنى لنـــهر الراين وذلـــك بخـــلاف بقيـــة العناصـــر الجرمانيـــة الـــتي ابتعـــت عـــن مواطنـــها الأصـــلية وصـــارت تحـــت رحمـــة الأعـــداء ولهـــذا احـــتفظ الفرنجـــة بحضـــارتهم وتـــراثهم وحيويتـــهم وظلـــوا أمـــة مترابطـــة تعلـــو فـــوق عوامـــل التفكـــك والضـــياع وســـط المحـــيط اللاتـــيني الكـــبير الـــذي نجـــح في إذابـــة جماعـــات جرمانيـــة أخـــرى. ولكـــن أهـــم خطـــوة كفلـــت الاســـتمرار والبقـــاء لمملكـــة الفرنجة هو مـــا قـــام بـــه كلـــوفيس ســـنة 496م مـــن تحـــول مـــن الوثنيـــة إلى الكاثوليكية الســـائدة في غالـــة، فأقـــدم بـــذلك علـــى أهـــم خطـــوة في تقريـــب نفسه مـــن قلـــوب الســـكان وســـلطات الكنيســـة الكاثوليكيـــة في غالـــة وأحـــل قومه مترلة هامـــة وســـامية بـــين أهـــل الـــبلاد المفتوحـــة[30] . وســـوف يترتـــب على هـــذه الخطـــوة نتـــائج سياســـية هامـــة[31]. وهكـــذا صـــار كلـــوفيس بهـــذا التصرف الحكيم بطلاً مـــن أبطـــال المســـيحية الكاثوليكيـــة وســـيفاً مـــن ســـيوف

---

[30] هذا في الوقت الذي دخلت فيه طوائف الجرمان الأخرى إلى جوف الإمبراطورية الرومانية لتقيم ممالك جرمانية أريوسية المذهب مخالفة بذلك المذهب السائد بين بقية السكان ولتمثل طبقة مذهبية مناهضة لبقية الطبقات الأخرى.

[31] يذكر أن الدافع وراء هذه الخطوة التي اتخذها كلوفيس باعتناقه المسيحية الكاثوليكية ترجع إلى زواجه من أميرة برجندية كاثوليكية هي الأميرة كلوتيلدا التي ربما أغرته باعتناق هذا المذهب..

المسيح لتقليم أظافر الممالك الأريوسية المجاورة ووضع حدّ لعبثها في البلاد والقضاء على زندقتها الدينية باسم الكنيسة الكاثوليكية. وقد رضي كلوفيس وهو ملك من البرابرة أن تستلم حكومته الإرشاد من الكنيسة وأن يضع نفسه في خدمة تلك الكنيسة وقد دام هذا الحلف طويلاً بين دولة الفرنجة والكنيسة الكاثوليكية وآذن بظهور عصر جديد في تاريخ غالة والتاريخ الأوربي معاً.



Figure 2

الإنجليز والسكسون في بريطانيا: قدم الإنجليز والسكسون والجوت من شواطئ بحر الشمال ومن شبه جزيرة جرتلاند ومن الدانمارك ومن الجهات الواقعة إلى جنوب الدانمارك وكان يربط بينهم اشتراكهم في اللغة والعادات ويجمع بينهم هدف الاستقرار في موطن جديد. وقد لعبت هذه العناصر دوراً هاما ف022ي تاريخ الجزر البريطانية واستمرت هجماتهم على الشواطئ الشرقية للجزر البريطانية وشواطئ بحر المانش منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي. واستغرقت المرحلة الأولى من غزواتهم لبريطانيا الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس تقريباً إذ توافد الإنجليز والسكسون في حركة تشبه حركة الاستعمار وتميزت بالقسوة في معاملة السكان وفي بداية القرن السابع الميلادي استولى الجرمان على كل ما هو معروف الآن باسم إنجلترا باستثناء بعض المدن المنيعة. وترتب عن هذه الغزوات تقهقر اللغة اللاتينية وتراجع المسيحية وانحطاط المدن الكبرى

واضمحلال النظم الرومانية وتحول رؤساء القبائل وزعماء العشائر الجرمانية إلى ملوك متوجين بعد استقرارهم فظهرت ممالك قبلية متعددة وساعدت الظروف الجغرافية على تكوينها إلا أن الحروب الداخلية منعت تطورها و لم تصبح إنجلترا موحدة إلا بعد مرور أجيال عديدة32.

المحاضرة الخامسة

الإقطاع والنظم الإقطاعية في أوربا خلال العصور الوسطى

-تمهيد

- ماهية الإقطاع

- بروز وتطور مبادئ الإقطاع

- التكريبة الاجتماعية للمجتمع الإقطاعي

- نضج النظام الإقطاعي وزواله

* * *

لم يكن العصر الوسيط عصرا منقصلا عن العصور التي سبقته أو لحقته فمنذ بداية العالم والعصور التاريخية يلاحق بعضها بعضا في عملية نمو بطؤء يتدرج فيه المجتمع الإنساني من مرحلة إلى أخرى لأسباب عديدة ولما كان العصر الإقطاعي مرحلة من مراحل تاريخ العصور الوسطى فالحكم نفسه ينطبق عليه .بمعنى أن العصر الإقطاعي ليس منفصلا عما سبقه أو لحقه من عصر وهو طور من أطوار النمو الذي تدرجت فيه البشرية. وبلغت مرحلة الإقطاع مداها في أوربا خلال القرنين التاسع والعاشر الميلادي وليس معنى ذلك أن الإقطاع بدأ في مطلع القرن التاسع وانتهى بنهاية القرن العاشر فالتطور إلى المجتمع الإقطاعي ليس بالحادثة التي يحددها زمن معين مثل معركة أو تنصيب ملك على العرش إنما هو عملية تطور تدريجي وطبيعي.

---

[32] م.م. مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص ص .115-166

1- تعريف الإقطاع: الإقطاع هو مصطلح عام يستعمل لوصف النظام السياسي والعسكري الذي كان سائدا في غربي أوربا خلال القرون الوسطى ففي ذلك العصر لم يكن هناك حكومة مركزية قوية كما كان الأمن ضعيفا ولكن النظام الإقطاعي كان يسد الحاجة الأساسية من العدالة والحماية وكثيرا ما يخلط الناس بين الإقطاع والنظام الإقطاعي الزراعي. فقد كان الإقطاع الزراعي نظاما لتنظيم العمالة الزراعية ويشير إلى العلاقة الاقتصادية بين السيد الذي يملك الأرض الزراعية والفلاحين الذين يستأجرون منه الأرض وعلي الجانب الإخر فإن الإقطاع كان في جوهره نظاما سياسيا وعسكريا وكان كل من السيد وأفراد رعيته الذين يعرفون باسم المقطعين من الأرستقراطيين وكان السيد يمنح الأرض للمقطعين مقابل قيامهم بخدمات عسكرية وكان السيد والمقطعون يلتزمون فيما بينهم برباط من المراسيم والعهود على أن يخلص كل طرف للآخر ويوفي بالتزاماته. أما الفلاحون فلم يكن لهم دور في مثل هذه الترتيبات.

- نشأ النظام الإقطاعي ليوفي بحاجات عصره ففي القرن الخامس ميلادي غزت القبائل الجرمانية أراضي الإمبراطورية الرومانية الغربية وقامت بتقسيمها إلى ممالك عديدة وكانت هذه الشعوب الجرمانية يسمون البرابرة لا تدين بالولاء إلا لزعماء قبائلها وأسرها وهكذا زالت الحكومة المركزية الرومانية وقد أدت تلك الغزوات إلى حالة من الفوضى العامة والحروب الممستمرة في السنوات التي تلت غزو البرابرة للامبراطورية الرومانية الغربية وقد ساعد النظام الإقطاعي في إقامة النظام في أوربا الغربية. وقد أنشأ الصليبيون في القرن الثاني عشر الميلادي دولهم في الشرق الإسلامي على أساس من النظام الإقطاعي. وقد ظهر النظام الإقطاعي أولا في كل من فرنسا وأنجلترا وإسبانيا ثم انتشر في باقي الأنحاء الأخرى من العالم المسيحي وأنشأ الصليبيون دولتهم في

الشرق الأدنى على أسس النظـــام الإقطـــاعي وقـــد بلـــغ النظـــام الإقطـــاعي فمتـــه بين القـــرنين التاســـع والثـــاث عشـــر المـــيلاديين ولكنـــه أصـــبح نظامـــا باليـــا في القنر الخامس عشر الميلادي33.

وهكذا فُن الإقطـــاع الأوربي بهـــذا المفهـــوم الســـابق هـــو نظـــام اقتصـــادي ســـاد في أوربـــا منـــذ نهايـــة الإمبراطوريـــة الرومانيـــة في القـــرن الثالـــث عشـــر. ولإقطـــاع يعـــني أراضـــي زراعيـــة مملوكـــة لأحـــد النـــبلاء أو الأشـــراف يعمـــل فيها عـــدد مـــن الفـــلاحين وقـــد انتشـــرت في معظـــم أنحـــاء أوربـــا وكانـــت الإقطاعيـــات تتكـــون مـــن الأراضـــي الـــتي يمتلكهـــا النـــبلاء والأراضـــي الـــتي يتمتلكهـــا الفلاحـــون أيضـــا. ويعـــيش النـــبلاء في بيـــوت داخـــل الضـــيعة الإقطاعية محاطـــة بالحـــدائق وأشـــجار الفاكهـــة والمبـــاني الأخـــرى وكـــان لكـــل بيت من هذه البيـــوت كنيســـة وطاحونـــة للـــدقيق ومعصـــرة للخمـــور وفي هـــذا النظام كـــان الفلاحـــون يعتمـــدون علـــى النـــبلاء في حمايتـــهم مـــن الأعـــداء وفي قضـــايا العدالـــة العامـــة أمـــام الدولـــة نظـــير أن يعمـــل الفـــلحون في مـــزارعهم الخاصـــة بالاضـــافة إلى مـــزارع النـــبلاء أي أنهـــم ملتصـــقون بـــالأرض ويعـــدون جزءا من الأملاك ويظلون في المزرعـــة حـــتى عنـــد بيعهـــا إلى نبيـــل آخـــر. وبـــدأ النظـــام الإقطـــاعي الأوربي في الأفـــول في الوقـــت الـــذي تلـــى ازدهـــار التجـــارة والصناعة وهـــذا الازدهـــار أدى إلى ظهـــور نظـــام اقتصـــادي يقـــوم علـــى دفـــع المال للحصول علـــى الســـلع والخـــدمات وقـــد اختفـــى نظـــام الإقطـــاع الأوربي في غـــرب أوربـــا أولا ثم اســـتمر في بعـــض أجزائهـــا في الوســـط والشـــرق إلى القرن التاسع عشر ميلادي.

2- بروز النظام الإقطاعي ونشأته:

ضعفت الملكية أمـــام الغـــزوات الجرمانيـــة وتقاتـــل النـــبلاء وأبنـــاء الملـــوك علـــى تقاســـم الأرض والســـلطة وعجـــزوا عـــن حمايـــة الشـــعب وتعرضـــت منـــاطق كثيرة للنهب والســـرقة وســـادت القفوضـــى وانتشـــر الفقـــر والجـــوع فظطـــرت

[33] الموسوعة العالمية/ عالم التاريخ والحضارة حرف أ، ج.2، الطبعة الثانية، ص. 431

كل منظقة أن تتولى الدفاع عن نفسها فراح الشعب يلتف حول قائد قوي وهو يتولى القيادة والحماية ويبني قصرا حصينا يكون المسكن والحصن ومركز جمع الغلال والسلاح والمقاتلين وأخلص الناس للسيد حتى يحميهم وخصصوا له قسما من الغلال كذلك خصصوا أياما يعملون في خدمته وهو بالمقابل يؤمن حمايتهم وعيشتهم وقت الضيق ويوزع عليهم الأرض والعمل وهو بدوره يخضع لإقطاعي أكبر منه وتتسلل عملية الطاعة حتى تصل إلى الملك فكل لإقطاعي مبدئيا سيد ععلى لإقطاعي وخاضع لإقطاعي أكبر مه وبين اُقطاعيين مواثيق وعهود ولهم حياقم الخصاة فيمضون معظم وقتهم في الصيد والتمارين العسكرية والرياضية والإلعاب كدلك في الحرب عندما تقدعو الحاجة ولهم تقاليد الفروسية من كرم وشجاعة ومساعدة المحتاج والعفو عن الضعيف واحترام النساء والأطفال والإخلاص لوعد قطعوه على أنفسهم ومع الوقت قوي الإقطاعيون وأصبحوا يتحدون تحت سلطة الملك ويجمعون الضرائب ويفرضون العدالة والنظام وسنون القواني وسكون العملة ويفعون علما خاصا بهم.

كانت حال الفلاحين سيئة فثاروا عدة مرات ضد أسيادهم وكان قمع الإقطاعيين عنيفا لكن الفلاحين استمروا يسعون للحصول عل حقوقهم حتى تحسن وضعهم وحصلوا على بعض الحقوق من الأسياد الإقطاعيين وبنيت الأسوار لحماية نفسها وأقام جماعة من الفلاحين في ضاحية المدينة خارج السور المسمى بورج bourg ثم تعاطوا المهن الحرة فاعتنوا وشكلوا طبقة عظمت قوقما مع الوقت عرفوا بالبرجوازيين تنافس الإقطاعيين حتى استطاعت فيما بعد أن تأخذ مكاهم وهي التي ستقود الثورة الفرنسية الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي فتقلب واقع المجتمع الأوربي34.

---

[34] الموسوعة العالمية، عالم الحضارة، ص. 431

3- قواعد وأسس النظام الإقطاعي: نشأ النظام الإقطاعي عن أصلين أساسيين أولهما علاقة الشرف التي تربط بين العصابات الجرمانية المقاتلة التي كانت تجوب مساحات شاسعة في أوائل القرون الوسطى فقد كان هناك عهد بالولاء بين قادة ومقاتلي هذه العصابات كان المقاتلون يحاربون من أجل شرف قائدهم ويتوقع منهم أن يضلوا معه حتى الموت وفي المقابل كان القائد مسؤولاً عن رجالهم ويكافئهم بالمجوهرات والفخار وكان الأصل الأساسي الثاني لنشوء الإقطاع هو نظام حيازة الأرض، ففي ظل هذا النظام كان السيد الإقطاعي أو اللورد يمنح الأرض لشخص ما وفق شروط معينة أو مقابل خدمات وليس مقابل إيجار وقيمة مالية وكان بعض ملاك الأرض ينقلون ملكية الأرض أرضهم إلى السيد الإقطاعي مقابل حمايته لهم.وكان السيد يسمح للناس بالبقاء في أرضه كزراع مستأجرين وهؤلاء الزراع المستأجرون هم الذين أصيحو فيما بعد فلاحين في ظل الإقطاع الزراعي وبالرغم من أنهم كانوا يفقدون استقلالهم بموجب هذا الترتيب إلا أن الحصول على الحماية من قبل السيد الإقطاعي المحلي القوي كان أمرا أكثر أهمية بالنسبة لهم وقد كان نظام حيازة الأرض قد بدأ العمل بموجبه مسبقا في المقاطعات القديمة التي كانت تتبع الإمبراطورية الرومانية عندما استقر فيها الغزاة الجرمانيون في القرن الخامس الميلادي.

وفي القرن الثامن ميلادي كان المسلمون قد دخلوا إسبانيا قادمين من أفريقيا ووصلت إمبراطوريتهم الجديدة إلى حدود أوربا الغربية وبدأ الملوك والنبلاء ذوي الشأن في منح الإقطاعات إلى المقاتلين الأحرار والنبلاء مقابل الخدمة العسكرية وكانت هذه الإقطاعات تشمل الأرض والمباني التي عليها والفلاحين الذين يعيشون ويعملون فيها وكان يطلق على المقاطعين الذين يتسلمون الإقطاعات اسم المقطعين وفي القرن التاسع الميلادي صارت علاقة الشرف والولاء التي سادت بين الزعماء

والمحاربين في العصابات الجرمانية المقاتلة ترتبط أيضا بنظام حيازة الأرض وتقديم الخدمات في المقابل وكانت نتيجة تجاوز هذين العاملين ما يعرف بالنظام الإقطاعي.

أما مبادئ النظام الإقطاعي فتنص على أنه ليس بمقدور أحد سوى النبلاء أو المحاربين الأرستقراطيين أن يشاركوا في الممارسات الإقطاعية ويقول أحد أمثال ذلك العصر: لا أرض بلا سيد ولا سيد بدون أرض. وكان الرجل يصير مقطعا للسيد وفق مراسيم تعرف باسم الولاء فكان على لشخص الذي بصدد أن يصبح مقطعا أن يتعهد بأن يكون مواليا لليد وأن يقاتل من أجله وان يصبح من رجاله. أما السيد فقد كان يتعهد بأن يعامل المقطع بشرف بعد أداء مراسيم البيعة كان المقطع الجديد يمنح حقوق استخدام إقطاعه وكان ذلك يتم وفق مراسيم تقليد المنصب وكان السيد في غالب الأمر أثناء هذه المراسيم يقوم بإعطاء المقطع كتلة من الطين أو عصا أو أي شيء آخر بمثابة رمز لإقطاعه وليس ملكيتها وكان يحتفظ بالاقطاع مقابل الخدمات التي تعهد بها. وكان المقطع يأخذ ما تنتجه الأرض وما ينتجه الفلاحون ويجمع الضرائب ويعقد الجلسات للنظر في قضايا الفلاحين. وكان يدير شؤون أعمال الفلاحين وعندما يموت المقطع كان يتولى فارس مسلح للمعركة في القرن الثالث عشر الميلادي يحمل سيفا ودرعا وتغطي رأسه خوذة ويمكن للفرسان الآخرين أن يتعرفوا عليه فقط بشعار النبالة وكان الابن يقوم بتقديم نفس الخدمات التي كان يقدمها والده وبحلول القرن الثاني عشر ميلادي أصبح العرف أن يرث الإقطاعي الإبن الأكبر للرجل وأطلق على هذا العرف اسم حق البكورة وقد عمل هذا العرف على ضمان أن لا يتم تقسيم الإقطاع لعدة أبناء وأن يتولى المسؤولية وريث واحد وفي حالة وفاة المقطع كانت الإقطاعية تعود إلى السيد وبذلك كان يتسنى للسيد أن يجمع الإقطاعية لشخص آخر حسب ما يراه. أما

في حالة إن كان وريث المقطع طفلا صغيرا فكان للسيد حق الوصاية ويكون بذلك وصيا على الطفل القاصر.

4- التركيبة الاجتماعية للمجتمع الإقطاعي: كان المجتمع الإقطاعي يتكون من العبيد ورقيق الأرض والأحرار. أما الأحرار فهم البارونات ورجال الدين والجنود النظاميين ومعظم التجار والصناع وأصحاب المهن وأخيرا الفلاحون الذين يملكون أرضا ولا يرتبطون بأي سيد إقطاعي إلا قليلا وكان هؤلاء الأحرار من القلة بحيث لم يتجاوز عددهم ربع الأهالي في أوربا الغربية.

طبقة العبيد: كانت كلمة SERVUS في اللاتينية تطلق على رقيق الأرض والعبيد لكن هذا اللفظ تطور مع مضي الزن وتحول إلى كلمة SERF لتقابل رقيق الأرض وكلمة SLAVE أي العبيد وكان معظم العبيدج في أوربا يتكونون من أسرى المسلمين أو الصقالبة أو من الصبيان الصغار وكذلك البنات الذين يخطفون من البلاد الإسلامية أو بلاد اليونان أو البلاد الممتدة على سواحل آسيا الغربية والبحر الأسود، وشمال إفريقيا وكانوا يباعون للعمل في الزراعة أو الخدمة المترلية. وقد راجت في إيطاليا بصفة خاصة، ولعل ذلك يرجع إلى تقارب إيطاليا مع بلاد اليونان والبلاد الإسلامية في حوض المتوسط والأندلس وكان هؤلاء التجار يقومون بهذا العمل وهم مراتاخو الضمير باعتبار أن هذا العمل يعتبر انتقاما من غارات المسلمين على الأراضي المسيحية وإذا كان هذا مالمفهوم قد ساء التجار الإيطاليين في بداية الأمر فإن جشع التجار دفعهم إلى بيع آلاف الأطفال المسيحيين الذين كونوا حملة الأطفال في عام 1212م إلى البلاد الإسلامية في الشام ومصر وشمال إفريقيا وراجت هذه التجارة في الشرق كثيرا وهو ما عرف باسم المماليك.

والواقع أن نظام التعامل مع العبيد كان نظاما قديما وليس وليد العصور الوسطى ولكن في نظام العصور الوسطى ساعدت الكنيسة على

إباحة استرقاق المسلمين والوثنيين وإن كانت قد حرمت بيع الأسرى المسيحيين إلى المسلمين. وإذا كان البابا جريجوري الأول 690-604م قد أعتق اثنين من العبيد وقال إن الناس جميعا لهم الحق في الحرية، إلا أنه ظل يستخدم المئات من العبيد في ضياع البابوية كما أنه حرم على العبيد أن يصبحوا من رجال الدين أو أن يتزوجوا من نساء مسيحيات أحرار. ولكن استرقاق الكنيسة للعبيد قد انتهت تقريبا مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي35.

وكان الأرقاء الذين يعملون في الشياع البابوية يحرمون من توريه ما يملكونه لأحد بل كان ما يمكلونه يصبح ملكا للكنيسة مباشرة. ومما سحع على الاسترقاق داخل أوربا أن بعض الفلاسفة أمثال توماس الأكويني قد فسر الاسترقاق بأنه النتيجة لخطيئة آدم وأنه وسيلة اقتصادية في محيط يكد فيه البعض ليمكنوا الآخرين من الدفاع عنهم. ورغم هذا كله فقد أخذ الاسترقاق طريقه نحو الاضمحلال بسبب التطورات الاقتصادية فقد اتضح للجميع أن الإنسان العادي يعمل تحت العبودية والقهر أقل إنتاجا من الإنسان الذي يعمل في ظل الحرية.

الأقنان: الأقنان أو عبيد الأرض، ومفرهم قن وهو الفلاح الذي يعيش على قطعة الأرض يمنحها له السيد الإقطاعي. وكان هذا القن يمتلك هذه الأرض أو تؤجر له مدى الحياة مقابل لأن يمنحه السيد الإقطاعي حمايته العسكرية وفي نظير ذلك يؤدي له القن أجرا سنويامن الغلال أو العمل أوالمال. والقن مربوط إلى هذه الأرض ولا يكلك الحرية في الانتقال منها. وللمالك أن يطرده منها متى شاء وإذا مات هذا القن فلا تنتقل قطعة الأرض إلى ورثته إلا بموافقة السيد الإقطاعي.

وإذا كانت هذه هي الأسس الرئيسة التي تقام عليها العلاقة بين السيد الإقطاعي والقن فهناك روابط أخرى تربط القن بالسيد الإقطاعي

35 محمود سعيد عمران، حضارة أوربا في العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية،

وبأرض الممنوحة لـــه. فمـــن المعـــروف أيضـــا إذا تـــزوج القـــن أو رزق بمولـــود فعليه أن يـــؤدي مباغـــا معينـــا رمـــزا لتبعيتـــه للســـيد الإقطـــاعي كمـــا أن القـــن كـــان مـــن الســـلعة يبـــاع ويشـــترى حســـب مـــا يـــرى الســـيد الإقطـــاعي.
والحقيقة أنه رغـــم أن هـــذه الـــروابط الـــتي تبجـــو قاســـية فـــإن القـــن نفســـه لم يفضل ترك الأرض لأنهـــا المـــورد الوحيـــد لكســـب عيشـــه وإذا انتقـــل إلى آخـــر فالحال كما هو لـــذلك فضـــل القـــن البقـــاء وســـط الأرض الـــتي ولـــد وترعـــرع فيها عمل بها، كمـــا لم يكـــن مـــن الســـهل علـــى الســـيد الإقطـــاعي أن يطـــرد أقنانـــه مـــن الأرض لأن هـــذه الأرض ســـوف تصـــبح عديمـــة الفائـــدة بـــدونهم.
ولمـــا كانـــت المنـــافع متبادلـــة بـــين الســـيد الإقطـــاعي وأقنانـــه فـــإن جماعـــات الأقنان عاشت في الأرض الممنوحـــة لهـــا أجيـــالاً بعـــد أخـــرى. وإذا كـــان مـــن المتعـــارف عليـــه أن القـــن في أوربـــا العصـــور الوســـطى كـــان يبـــاع ويشـــترى فإنه كان يبـــاع ويشـــترى مـــع الأرض نفســـها، وهـــذا الوضـــع هـــو في صـــالح البـــائع والمشـــتري معـــا، فمـــن مصـــلحة المشـــترى أن يشـــتري الأرض مـــع العمال الذين خبروها وأصلحوها ومارسوا فلاحتها.
ومن أشهر ما عـــانى منـــه الأقنـــان حـــرب الوراثـــة الـــتي تقـــع علـــى الأرض إذا مات صاحبها دون إبـــن أو ابنتـــه لـــذلك كـــان الأقنـــان يلحـــون علـــى ســـيدهم بالزواج إذا ماتت زوجته حتى لا يتعرض لمثل هذه الحروب.
كان الفلاح يسكن الكـــوخ مـــن الخشـــب يعلـــوه ســـقف مـــن الخشـــب غالبـــاً وإذا اشتعلت النار في أحد الأكـــواخ أتـــت علـــى الكـــوخ تمامـــاً. وبـــداخل هـــذا الكوخ وجدت كبيرة توضـــع علـــى الأرض ينـــام عليهـــا القـــن وأســـرته وبعـــض الأدوات المترلية التي تفـــي بغـــرض الحيـــاة وكانـــت الخنـــازير والـــدواجن تعـــيش في الفناء الممتد أمـــام المـــترل وبلاقـــرب مـــن هـــذا الكـــوخ كـــان يوجـــد فنـــاء مسور للأبقار والخيول.
أما عن ملابس القـــن أو الفـــلاح فقـــد كانـــت قميصـــا مـــن القمـــاش أو جلـــد الحيوان وعيه ســـترة مـــن الصـــوف أو مـــن الجلـــد وســـروالا ويشـــع في قدميـــه

جذاء عاليا أو نصف عال. وكان القن وزوجته يكدحان من بزوغ الشمس إلى غسق الليل ورغم هذا كله فلم يكن القن يعتبر نفسه مظلوما مغلوبا على أمره بل تصور نفسه بطلا يفلح الأرض قويا صبوراً وهو يتحمل كل ذلك العناء في سبيل أسرته وفي سبيل السيد الإقطاعي والذين يعيشون حوله. وكان غذاء الفلاح يتكون من البيض ومنتجات الألبان والخضر وبعض اللحوم والخبز الأسود. وعاش مع أقرانه من القرية الإقطاعية حياتهم البسيطة يجتمعون في المناسبات وأيام الأعياد والآحاد في ساحة القرية أو الكنيسة وعلينا أن نعرف أن القن كان أميا لا يعرف شيئا سوى فلاحة الأرض، لذلك سيطرت الخرافات على عقله ولكنه كان مقتنعا بالموت إذ كان مهددا دوما بالحريق أو القحط أو الحيوانات المفترسة مثلما حدث في فرنسا بين عامي 970-110م من القحط الذي أهلك الحرث والنسل وكما حدث في إنجلترا في الفترة بين 1086-1125م حتى اضطر الأهالي إلى أكل لحوم الخيول ولذلك كان هذا الفلاح أو القن جلفا عنيفا شرها قاسيا.

5- النظام الإقطاعي في مرحلة نضجه:

استغرق نمو النظام الإقطاعي حوالي قرنين من الزمان من القرن 9-10 الميلاديين، وتم ذلك النمو وسط اضطرابات كبيرة. ويرجع المؤرخون إلى شارلمان في القرن الثامن الميلادي بدايات النظام الإقطاعي ويعتبر نظام الوراثة الذي ساد على بد خلفاء شارلمان والذي ينص على تقسيم الامبراطورية بين أولادهم أحد مرجعيات هذا النظام. وتمت عملية النضج بالنسبة للنظام الإقطاعي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر حيث نلاحظ أن الحكومة المركزية صارت شبه معدومة وأن ولاء الناس قد تحول من الحكومات المركزية إلى بعض النبلاء المحليين بعد فشل قيام الحكومات المركزية بدور ملحوظ في الدفاع وخدمة المواطنين وهؤلاء النبلاء المحليون هم الذين تحملوا عبء المسؤولية في الأراضي الزراعية التي

كانت تحت أيديهم ومن ذلك قيام أودو كونت باريس بالدفاع عن المدينة عندما هاجمها الشماليون في عامي 774-778م.

وفي هذه المرحلة نجد أن امتلاك الأرض أصبح مصاحباً لحق امتلاك السلطة والحكم فاندمجت الأرض في السلطان وقامت علاقات بين صاحب الأرض ومن يعيش على هذه الأرض، وارتبطت العلاقات بتعهدات مشتركة والتزامات متبادلة بين الطرفين حتى صارت هذه التعهدات هي القاعدة التي سارت عليها أمور الحكم ومتطلبات الحياة الأمن والحياة في أوربا العصور الوسطى.

وفي مرحلة اكتمال نمو النظام الإقطاعي أصبح المجتمع يتشكل في صورة هرم قمته الإمبراطور أو الملك ويليه في الأسفل كبار البارونات أو الأفصال ثم يلي هؤلاء جماعة أقل نفوذا وهكذا إلى أن نصل إلى أسفل القاعدة حيث العبيد والأقنان.

6- الفروسية والعدالة في ظل النظام الإقطاعي:

أ- الفروسية: كانت الخدمة الأساسية التي يقدمها المقطع لسيده تتمثل في الخدمة العسكرية وخلال القرن الثامن ميلادي كان يتوجب على المقطعين أن يوفورا عددا معينا من الفرسان لخدمة السيد لمدة من الأيام وكانت هذه المدة أربعين يوما في العادة نوكان الفرسان عبارة عن مقاتلين مدرعين على صهوات جياد الحرب وكلما كانت الإقطاعية التي يتولاها المقطع أكبر كان لزاما عيه أن يوفر عددا أكبر من الفرسان وأصبح من التقاليد السائدة أن يقومن المقطع بتقسيم إقطاعيته وأن يصبح الفرسان بدورهم مقطعين تابعين له. وعرفت هذه العملية باسم الإقطاع من الباطن.

ب- العدالة: كانت التراعات التي تنسأ بين المقطعين تسوى في الحلسات التي يعقدها السيد الإقطاعي وكانت تضم جميع المقطعين وهناك العديد من التقاليد القانونية التي نشأت في المحاكم الإقطاعية وأصبحت فيما بعد

جـــزءا مـــن الأنظمـــة القانونيـــة لبريطانيـــا والبلـــدان الأخـــرى. وعلـــى ســـبيل المثـــال كـــان الســـيد هـــو الـــذي الـــذي يتـــرأس جلســـات المحـــاكم الإقطاعيـــة وكان الحكم يصـــدر علـــى المقطـــع مـــن قبـــل المقطعـــين الآخـــرين مـــن أنـــداده التي يكونون بمثابة المحلفين.

أمـــا الأعـــراف والتقاليـــد القضـــائية الأخـــرى لعصـــر الإقطـــاع فقـــد اختلفـــت حسب الأقاليم. ومن هـــذه الأعـــراف مـــا كـــان يعـــرف باســـم المحاكمـــة عـــن طريق المبـــارزة حيـــث كـــان المقطعـــان المتنازعـــان يـــدخلان في مبـــارزة وكـــان من ينتصر في هـــذه المبـــارزة يكـــون هـــو الـــذي يكســـب القضـــية فقـــد كـــان يعتقد أن الإله يعطي النصـــر للمقطـــع الشـــريف أو الجانـــب الـــذي معـــه الحـــق. وكـــان واجبـــا علـــى المقطـــع أن يســـتجيب لأوامـــر التكليـــف بـــالمثول أمـــام المحكمـــو وإذا لم يحضـــر المقطـــع جـــاز للســـيد الإقطـــاعي أن ينتـــزع منـــه مـــا أقطعه أما المقطع المتمرد فكـــان يعـــد مجرمـــا وكـــان مـــن المفتـــرض علـــى الســـيد أن يأخذ مشورة وموافقة المقطعين التابعين له قبل إصدار القوانين.

7- القرية الإقطاعية:

تكونت القريـــة الإقطاعيـــة مـــن مجموعـــة مـــن الفلاحـــين بعضـــها مـــن الاقنـــان والبعض الآخـــر مـــن أنصـــاف الأحـــرار والأحـــرار. وكـــان هـــؤلاء الفلاحـــون يبنون أكوخهم حول قصـــر أو قلعـــة الســـيد الإقطـــاعي للاحتمـــاء بـــه. لـــذلك كانت هذه الأكـــواخ متقاربـــة مـــن بعضـــها داخـــل أســـوار القريـــة مـــن أجـــل الأمان. وكانـــت شخصـــية العمـــدة مـــن الأهميـــة داخـــل القريـــة بمكـــان فهـــو الذي ينسق نشاط الفلاحـــين الزراعـــي ويـــتم اختيـــاره بمعرفـــة الفلاحـــين وهـــو الذي يتوسط بين الفلاحي والسيد الإقطاعي إذا لزم الأمر.

وكان الفلاحون يلتقون في ســـوق القريـــة في فتـــرات محـــددة لتبـــادل مـــا فـــاض من السلع ولـــذلك عملـــت القريـــة الإقطاعيـــة علـــى ضـــمان الاكتفـــاء الـــذاتي بين سكانها، فقد كان الفـــلاح ينـــتج بنفســـه مـــا يحتاجـــه مـــن الخضـــر واللحـــم وكان يغزل صوفة أو كتانـــه بنفســـه أو بمســـاعدة أفـــراد أســـرته، كمـــا كانـــت

بعض الأعمال الـتي تخصـص فيهـا أحـد عمـال القريـة مثـل الحـداد ودابـغ الجلـود والنجـار الـذي يصـنع أثـاث المـترل والأكـواخ وصـانع العربـات والصباغ والبناء وصانع السـروج والأحذيـة وغـير مـن الأشـياء الـتي يحتاجهـا المترل القروي.

وقامـت القريـة الإقطاعيـة أساسـاً علـى الزراعـة وكانـت أرض القريـة في العصور الوسـطى تقسـم إلى ثلاثـة أقسـام: يتـرك أحـدها للراحـة ولا يـزرع أما القسمان الآخران فقد كـان أحـدهما يـزرع شـعيراً ويـزرع الآخـر قمحـاً ثم يتم تقسيم كـل قسـم مـن الـذي سـيزرع إلى مسـاحات صـغيرة يفصـل بينها شريط غير مزروع. وتـولى موظفـو القريـة تسـليم كـل قطعـة أو أكثـر لأحد الفلاحـين لزراعتـها وفقـا للخطـة الموضـوعة وكـان الفلاحـون جميعـا يتولون العملية الزراعيـة مـن حـرث وبـذر ورعايـة وحصـاد متعـاونين. وإذا فرغ الفلاحون مـن هـذه الأعمـال يقومـون بقطـع الأشـجار ورعـي الماشـية وجمع الكـلإ وكـان تسـميد الأرض يـتم بحـرق بقايـا النباتـات والأعشـاب الضارة.

وكـان عـدد مـن الفلاحـين يشـتركون في شـراء محـراث واحـد أو زحافـة لاستخدامها في أغـراض الزراعـة وذلـك لعـدم وجـود قـدرة شـرائية لـدى كل فلاح. واتخذ الثور كحيوان لجـر عربـة الفلاحـة باعتبـاره أقـل نفقـة مـن الحصـان ثمـن تطـور الأمـر واسـتخدم الحصـان بعـدما صـنعت الأطـواق الجلدية التي ساعدت علـى الجـر دون مشـقة حـتى أنـه كـان يحـرث في اليـوم أضعاف مـا يحرثـه الثـور وقـد اسـتفاد الأوربيـون مـن المسـلمين وأدخلـوا السواقي في العمليات الزراعية36.

واعتـبرت الكنيسـة أن العمـل يـوم الآحـاد يعتـبر إثمـا كـبيراً لـذلك اتخـذ الفلاحون هذا اليـوم للراحـة والترفيـه. وكـان الفلاحـون يبـدأون هـذا اليـوم بالصـلاة في كنيسـة القريـة ثم ينطلقـون للغنـاء والـرقص والألعـاب الرياضـية

[36] محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص ص. 27-28

ككرة القدم والمصارعة والهوكي أو رفع الأثقال كما تسلى الفلاحون بمشاهدة مصارعة الديوك أو الثيران ومن المشاهد المألوفة في القرية في أيام العطل وضع أوزة أو دجاجة في منطقة مغلقة ثم يقوم رجلان مقصوبا العينين بمحاولة قتلها بالعصي. ويتزاور الفلاحون لبعض الوقت في الأمسيات يتناولون فيها الخمر والحديث عن متاعبهم أو مسراتهم.

8- زوال النظام الإقطاعي:

تظافرت عدة أحداث في أوربا خلال القرن الثالث عشر الميلادي أدت إلى ضعف النظام الإقطاعي الذي لم يزل نهائيا إلا مع الثورة الفرنسية 1789م. وكان من هذه الأسباب النهضة الاقتصادية التي أدت إلى تداول العملة فصار تشغيل الأجراء مقابل المال وليس مقابل الخدمة العينية وبهذا تضاءل عدد السادة الإقطاعيين الذين كانوا يعتمدون على المقطعين في توفير خدمات الفرسان. كما أدى اختراع البارود وأسلحة أخرى مثل القوس الطويل والمدافع إلى إضعاف سيادة الفرسان فقد هزم جنود المشاة من المدن الفرسان الفرنسيين في معركة من المعارك التي دارت فيما بينهم في كريسي عام 1346م وفي أجينكورت عام 1415م ولمن تعد القلاع البحرية التي كان يقيم فيها السادة الإقطاعيون غير قادرة على الصمود أمام المدافع ونمت المدن وازدهر ثراؤها وتعاظمت أهميتها وقلت حاجة الحكام إلى الطبعة الأرستقرطية وقام أفرادها من الشعب تلقوا التدريب على الخدمة الحكومية بشغل تلك الوظائف التي كان يؤديها المقطعون في إقطاعاتهم.

المحاضرة السادسة

التعليم والجامعات في العصور الوسطى

المقدمة- التعليم في الأديرة- التعليم في الجامعات- الامتحانات وحياة الطلبة

بالعلم سادت الكثير من الأمم وتفوقت على غيرها من الأمم في جميع المجالات، لهذا السبب وجد الاهتمام بالتعليم منذ عصور ما قبل التاريخ. أما في التاريخ الأوربي فإن الغزوات الجرمانية كانت بربرية همجية وأدت إلى اضمحلال المدارس التي أنشئت في الإمبراطورية الرومانية، مما يفتح الباب أمام أوربا لتعيش أشد فترات تاريخها ضلاما من الناحية الثقافية والعلمية.

إلا أنه في القرن الثامن ميلادي ساهمت مؤسسات دينية في نشر وبعث الحركة التعليمة والعلمية وحملت على عاتقها مسؤولية نشر مختلف العلوم وقد تعددت هذه المؤسسات بمرور الوقت بدءاً بالأديرة والكاتدرائيات وانتهاءا بميلاد الجامعات في القرن الثاني عشر. فماذا ياترى وراء هذه المؤسسات من تطور تاريخي؟ وماذا عن طريقة تعليمها ومناهجها ومن هم طلابها وكيف ساهمت في بعث الحركة العلمية؟ هذه

كلها تساؤلات سنجيب عنها من خلال هذه المحاضرة التي تتضمن ثلاثة مباحث مراعين في ذلك التسلسل الزمني.

أولاً. التعليم في الأديرة والكاتدرائيات

1- الأديرة: لقد كانت المدارس التابعة للأديرة عاملاً هاما في انطلاق الحركة العلمية الدينية خصوصا بعد أن أختفت غالبية المدارس التي أنشئت في عصر الإمبراطورية الرومانية وقد قدر لأديرة أيرلندا بالذات أن ترعى بعض الدراسات الإنسانية والثقافية بل وتشع منها إلى بقية أنحاء العالم من أنجلترا ثم إلى قلب القارة الأوربية. لقد حازت المدارس الديرية على إعجاب الناس في كل مكان. إذ أنشأ الرهبان الأيرلنديون كثيرا من المدارس في معظم أنحاء العالم اللاتيني وشجعوا الدراسة فيها37.

وعلمت الأديرة على إنقاذ تراث أوربا الفكري من الضياع في وقت لم توجد قوة أخرى في الشطر الأول من العصور الوسطى، تعمل لهذه الغاية. وساهم في ذلك الرحلات التي قام بها الرهبان الأيرلنديون وكذا جهود شارلمان فقد اهتم بالتعليم في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع، وهذا الاهتمام هو الذي جعله يهتم بالمدارس الديرية وتدعيمها وإصلاحها وتوسيع دائرة نشاطها حتى غدت بعض هذه المدارس مثل تور وفولدا مراكزا للنشاط الفكري وقد قدر لكثير من هذه المدارس الاستمرار عقب سقوط الإمبراطورية الكارولنجية مثل مدارس ريمس وليون وفريير وكورفي وفولدا وبافيا وغيرها38.

وما بين سنتي 800-1100م عرفت هذه الفترة بالعصر البندكتي لأن رهبان القديس بندكت أظهروا حماسة بالغة في القيام بواجبهم في تعليم الأشخاص خاصة الصغار منهم. إلا أنهم قاموا بهذه المهمة على هامس

---

[37] محمد محمد مرسي الشيخ، النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة 1996، ص.109

[38] سعيد عبد الفتاح عاشور، حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1976، ص.16

المهمة الأصلية المتمثلة في مهام الدير وهي الانقطاع للعبادة وخدمة الدين. فقد خصص الرهبان ما يقارب أربع ساعات ونصف من حياة الراهب اليومية للعبادة والصلوات الجماعية، وقد غلب الطابع الديني على التعليم في الأديرة، ولكن كانت في كل دير مكتبة كبيرة مليئة بالكتب النادرة والمخطوطات إلى جانب تفرغ بعض الرهبان لعملية نسخ هذه الكتب39.

وكانت هذه المدارس الديرية تقبل أنواعا من الطلبة بعضهم أعدوا أنفسهم ليكوهنوا رعبانا داخل الدير ولهذا سموا بالداخليين interni وكذلك العمل كرجال دين خارج الدير ولهذا سموا بالخارجيين externi والبعض الآخر كانوا لا يرغبون الاشتغال بالدين إطلاقا. وهكذا لم تكن المدارس الديرية في هذه الفترة قاصرة عل تعليم الديريين بل أنها استقبلت طلابا للعلم من غير الديريين أول مرة في تاريخها. ومنذ بداية القرن التاسع غدا لكل دير مدرستان منفصلتان إحداهما للديريين المتفرغين للعبادة وأخرى للطلاب الخارجيين وبذلك أسهمت المدارس الديرية في نشر الحركة التعليمية إلى حدج ما على الرغم أن نظمها ومواد دراستها ظلت دينية في أسلوبها وأهدافها فضلا عن أن النظام فيها كان صارما فلا يحصل الطلاب الداخليون على فرص اللغب إلا قليلا كما كان الهدوء سيود حتى في فترات الراحة بين الدروس. وعرف استخدام العصا لتأديب المتعلمين وكذا الحبس والصوم الإجباري وكلها كانت من الوسائل المألوفة كما أن تعليم العلمانيين لم يكن له نظام ثابت مما يترتب عليه بقاء أغلب من التحق به جهالا لا يعرفون القراءة والكتابة أن التعليم اتسم بالحزم ولاقسوة وضعف المستوى العلمي بالنسبة للقائمين عليه كما أن الدروس كانت تلقى شفهيا بشبب ندرة وارتفاع أسعارها وغلو ثمن الورق40. لقد قام الدير بدور بالغ الأهمية،

---

[39] مرسي، ص.110

[40] مرسي، 111

فإذا كان قيام الدير غير مشروط بوجود مرسة فيه فإن كل دير كانت به مكتبة ضمنت على الأقل عدة نشخ ن الإنجيل وبعض المؤلفات في اللاهوت. ولما كانت الأديرة تتمتع في العصور الوسطى بممتلكات وأراضص واسعة فإنه صار من الضروري وجود سجلات وأرسيف في كل دير لضبط حساباته وقيد إيراداته ومصروفاته. كذلك حرصت الأديرة على الاحتفاظ بقوائم بأسماء أعضائها الأحياء منهم والأموات فضلا عن أسماء بعض الصالحين من نزلاء الأديرة المجاورة.ثم إن إحياء الأعياد والشعائر الدينية بالدير تطلب وجود تقويم يتضمن مواعيد دكرى القديسين كما حرص الكثير من الأديرة على أن يكون فيها حوليات لتدوين أهم الأحاث الجارية داخل الدير وخارجة مما جعل هذه الحوليات الديرية المصادر الوحيدة في كثير من الأحيان لتاريخ بعض البلدان الأوربية في العصور الوسطى41.

حقيقة أن الأديرة كانت كثيرة وعديدة في أوربا خلال العصور الوسطى إلا أن معظمها تعرض إلى الاضمحلال والذبول مما مهد الطريق لقيام منظمات أو هيئات ديرية أخرى ولكن لمن تلبث هي الأخرى أن جرفها تيار الترف والرغبة في التنعم بملاذ الحياة الدنيا فكان القرن الثاني عشر قرن اضمحلال الأديرة البندكتية بحيث لم تبق منه هذه الأديرة سوى قلة احتفظت بأهميتها كمراكز للحياة الفكرية في أوائل ذلك القرن ومن هذه الأديرة دير مونت كاسينو ودير بك فكان الأول به مكتبة ضخمة ضمت مؤلفات جريجوري التوري وبولس الشماس فضلا عن بعض الأثار الفكرية القديمة لشيشرون وأوفيد وفرجيل ونفس الوضع شهذته الأديرة لكلونية رغعم أن النظام الكلوني قد شجع فكرة نشخ الكتب داخل الأديرة فكما وجه الرهبان الكلونيون اهتمامهم نحو الدراسات اللاهوتية وأهملوا ما عداها مثل التاريخ والنحو وغيرها من الفنون42.

---

[41] عاشور، 18

[42] عاشور، 20

كما لا ننسى فضل الجماعات الرهبانية التي نشأت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر مثل الإخوان الفرنسيسكان والسشتريان والدومنكان وغيرها فقد قامت على أكتاف هؤلاء نهضة القرن الثاني عشر أو نهضة العصور الوسطى حينما احتك الأذهان والعقول بين العنصر الرجعي من المفكرين الذي يعبر عن الفكرة الدينية القديمة المتزمتة وممثله القديس برنارد أوف كليرفو وبين العنصر المجدد من المنادين بتحرير الفكر ويتزعمه الفيلسوف بطرس أبيلارد زعيم الفكر الحر وتحرير الذهن من التقاليد العتيقة والداعي إلى فلسفة الشك والتشكك الشهيرة43.

فالقديس برنارد من الشخصيات البارزة التي أخرجتها جماعة الإخوان السشتريان(1091-1153م) وهو أكبر ممثل للتفكير القديم ومن المتحمسين للنظام البندكتي وكان متصوفا منكرا لذاته أسس ديره المعروف كليرفو وكان يتمتع بنفوذ كبير ونشاط فائق، هذا القديس الذي دخل في صراع مع بطرس أبيلارد (1079-1142) من أشهر رجال الجدل، هذا الأخير الذي دعا إلى استخدام العقل وتطبيقه على كل ما يقع تحت يد الإنسان قائلا إن الإنسان يجب أن لا يؤمن في شيئ قبل تفهمه وهكذا أصبح الفهم والإدراك لديه يسبقان الإيمان44.

2- التعليم في الكاتدرائيات:

يختلف هذا الصنف عن المدارس الديرية في طابعها الديني وأهدافها الكنسية، إلا أنها أسهمت مع الأديرة في نشر الحركة العلمية بأوربا في تلك الفترة حيث راحت الثقافة الفكرية تتحول من الأديرة إلى الكاتدرائيات فعلى الرغم من أن المدارس الأسقفية أو الكاتدرائية سارت جنبا إلى جنب لفترة مع المدارس الديرية إلا أن المدارس الأسقفية احتلت تدريجيا محل المدارس الديرية. وكانت الكاتدرائيات وهي الكنائس الكبيرة يقيم بها الأساقفة، تحتل أهمية خاصة أن كل واحدة منها كانت

---

[43] جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات في العصور الوسطى، مكتبة المعارف

[44] يوسف، 99

تتوسط منظقة يطلق عليها اسم أبريشية diocèse، فألحقت بكل كاتدرائية مدرسة أو معهد كان الأسقف يتولى رئاسته في أول الأمر.

ويؤكد بعض المؤرخين أن الكاتدرائيات اعتباراً من القرن الحادي عشر وما تلاه كانت ترعى عددا من المدارس بعضها كان يقدم تعليما على مستوى رفيع وفي جوانب متعددة من العلم وفي البداية كان الأسقف يتولى رئاسة المدرسة أو المعهد أو يشرف على التعليم في الأسقفية إذا تعددت مدارسها ومعاهدها، لكن تعدد مهام الأسقف وتعددها وتنوعها جعلته يعهد بهذه المهمة لأستاذ متخصص يعرف باسم Magester scholarium للإشراف على التلاميذ.

واستقلت المدارس الكاتدرائية بميزة هامة مقارنة بالمدارس الديرية إذ قلت الرقابة في المدارس الكاتدرائية فقد أتيح للمدارس الكاتدرائية نوع من الحرية في مقرراتها الدراسية كما وسعت من دائرة اهتماماتها فلم تقتصر على الشؤون الدينية فهتمت بالنواحي الخلقية ورعت العلوم والفنونه واهتمت بالفقراء والمرضى كما عنيت بالمكتبات فأضحت مراكز للفكر من ناحية والفنون الحرة من ناحية أخرى. ولذا قدر لهذا النوع من المدارس البقاء والاستمرار بل الازدهار في أوائل القرن الثاني عشر في الوقت الذي بدأت فيه المدارس الديرية تضمحل45.

لقد تعددت مناهج الدراسة في المدارس الكاتدرائية إذ اهتم بعضها بالعناية الخاصة بدراسة النحو ودراسة نماذج من الشعر والنثر والمنطق أي دراسة المجموعة الثلاثية التي هي النحو والبيان والمنطق وبعضها اهتم كثيرا بدراسة الرباعية التي هي الحساب والهندسة والفلك والموسيقى كما حظيت العلوم بقسط وافر من العناية وفي مقدمتها علوم اللاهوت والفلسفة والقانون بل جرت العادة لأن يكون لكل رئيس أساقفة كرسيان أحدهما للفلسفة والآخر للقانون الكنسي46. وكانت

---

[45] عاشور،23

[46] مرسي،112

الكاتـــدرائيات تنفـــق مـــن أموالهـــا علـــى الطـــلاب الـــذين كـــانوا يؤهلـــون ليصبحوا رجال ديـــن ، أمـــا الطـــلاب الآخـــرين فكـــانوا يـــؤدون أجـــوراً قليلـــة ما عدا الفقراء منهم الذين كـــانوا يعفـــون مـــن ذلـــك. بـــل إن الكنيســـة كانـــت تخصص رواتـــب كافيـــة للمعلمـــين الـــذين يتولـــون تعلـــيم مـــن يعـــدون لمهنـــة الكهانة وفقراء التلاميـــذ بالمجـــان فقـــد أصـــدر مجلـــس لاتـــران الثالـــث 1179م قرارا يقول: لكي لا يحرم الأطفـــال الفقـــراء مـــن فرصـــة القـــراءة والرقـــى يجـــب أن يخصص مرتب كاف لمـــدرس يعلـــم بالمجـــان مـــن يعـــدون لممارســـة الكهانـــة وللفقراء من التلاميـــذ. كمـــا أن معظـــم المـــتعلمين كـــانوا مـــن فئـــة الـــذكور، رغـــم أن المـــدارس الكاتدرائيـــة كانـــت تقبـــل البنـــات47. وإن أهـــم وأشـــهر الكاتدرائيات التي برزت في الميـــدان الثقـــافي في القـــرن الثـــاني عشـــر هـــي تلـــك الواقعة في شمـــال فرنســـا إذ ظهـــرت أهميـــة شـــارتر وأورليـــان في حركـــة إحيـــاء الدراســـات الكلاســـيكية وأهميـــة ريمـــس ولاؤون في الدراســـة المدرســـية وأهميـــة باريس التي انبعث منـــها أول شـــعاع للحركـــة الجامعيـــة في شمـــال أوربـــا كمـــا احتلـــت كاتدرائـــة كـــانتربوري مكانـــة كـــبيرة في أنجلتـــرا فقـــد قـــام رئـــيس أســـاقفتها ليوبالـــد(1138-1161م) الـــذي تلقـــى تعليمـــه بمدرســـة دريـــر بـــك بفرنســـا بجمـــع عـــدد كـــبير مـــن المفكـــرين حولـــه كمـــا اتخـــذ جنـــا سللســـبوري مكـــربيرا لـــه وماســـتر فكـــاريوس مستشـــاراً قانونيـــا وهكـــذا ارتبطت هذه الكاتدرائية بعـــدد بـــارز مـــن الشـــعراء والأدبـــاء ورجـــال القـــانون وغيرهـــم مـــن المفكـــرين كمـــا اشـــتهرت هـــذه الكاتدرائيـــة بمكتبتـــها الضخمة48.

أما في أسبانيا فاشـــتهرت مدرســـة طليطلـــة ولم تلبـــث، بعـــد أن اســـتولى عليهـــا المســـيحيون ســـنة 1085م،أن أصـــبحت المركـــز الطبيعـــي للاســـتفادة مـــن تراث الحضارة الإســـلامية ونقـــل هـــذا التـــراث إلى العـــالم الغـــربي ففـــي تلـــك المدينـــة عثـــر الأوربيـــون علـــى مكتبـــة عربيـــة ضـــخمة وعـــدد كـــبير مـــن

[47] ول ديورنت، قصة الحضارة،دار الجيل، بيروت 1998، ج.17-18، ص ص. 24-25

[48] عاشور، 22

المستعربين الـذين يعرفـون العربيـة واللاتينيـة وعـن طريـق هـؤلاء ومسـاعدة بعض اليهود تجمت كثير من المؤلفات الثمينة إلى اللاتينية.

أما كاتدرائيات ألمانيـا وإيطاليـا فلـم تقـم في القـرن الثـاني عشـر مثـل هـذا النشـاط العلمـي كمـا في فرنسـا وإسـبانيا ذلـك أن الـتراع بـين البابويـة والإمبراطورية كان له أثريه السـيء علـى أحـوال ألمانيـا وإيطاليـا.فقـد شـغل أساقفة ألمانيـا وإيطاليـا بالمسـائل السياسـية ومناصـرة البابويـة أو الإمبراطوريـة رغمذلك قام بعض الأسـاقفة بـدور في النشـاط العلمـي مثـل رومولـد الثـاني أسقف سـالرفو وخريسـولانوس رئـيس أسـاقفة مـيلان الـذي اشـتهر بأبحاثـه اللاهوتية49.

ثانياً. التعليـم في الجامعـات:

لم تكن الجامعـات وليـدة يـوم وليلـة، ولم تنشـأ متطـورة طفـرة واحـدة في محيط العلم والتربيـة والتعلـيم. شـأنها في ذلـك شـأن أي ظـاهرة مـن ظـواهر التاريخ، إنما كانـت نتيجـة طبيعيـة ومنطقيـة لعـدة عوامـل وظـروف ترجـع إلى قرون طويلـة ويمكـن القـول أن الجامعـات مـرت بعـدة مراحـل ريسـية مميزة إلى أن وصلت إلىطور النضح والكمال.

تقع المرحلـة الأولى مـن تـاريخ نشـأة الجامعـات في المـدارس العامـة الملحقـة بالمؤسسـات الدينيـة مـن كنـائس وأديـرة وكاتـدرائيات وأبريشـيات فقـد كانـت هـذه المـدارس أو المؤسسـات هـي المشـعل الـذي أضـاء ظلمـات القرون الوسـطى وإن ارتـبط تأسـيس هـذه المـدارس بالـدين وتعلـم الطـلاب العلوم اللاهوتية وكذا قواعـد اللغـة اللاتينيـة وكـذا علـوم الكـلام والمقصـود بها المنطق والجدل حتى يتمكن الطـلاب فيمـا بعـد مـن إقنـاع الخـارجين عـن الدين والرد علـى الهراطقـة والـوثنيين إلى جانـب قواعـد الحسـاب والفلسـفة لتحدي أيـام الأعيـاد والقديسـين وبعـض قواعـد فـن الموسـيقى لأداء تـرانيم الكنيسـة. ولقـد لقيـت هـذه المـدارس تشـجيع كبـار رجـال الـدين علـى

[49] عاشور، 24

رأسهم البابوات كما لقيت الكثير من العناية من الحكام والملوك منذ أيام الإمبراطور شارلمان[50].

أما في المرحلة الثانية فقد عرفت هذه المدراس الدينية ازديادا كبيرا في عدد روادها وازدهار بعضها ورجحت كفتها على غيرها من المدارس بسبب ظهور أساتذة مبرزين فيما بعد مما دفع الطلاب إلى الإقبال عليها من كل مكان في الغرب لتلقي العلوم على أساتذتها والإفادة منهم. وقد نتج عن ازدهار تلك المدارس نموها في المرحلة الثانية حيث تحولت إلى معاهد علمية كبيرة بفضل أساتذتها الذين كانوا يحاضرون بها. فكلما ارتفعت مكانة الأساتذة من الناحية العلمية كلما ارتفع شأن المعهد الدي يدرسون به ولكلما ازداد عدد الطلاب المقبلين عليه من كل صوب ونجد مثلا حيا لذلك في عهد الفيلسوف بطرس أبيلارد صاحب فلسلفة الشك والتشكك، عندما أخذ يحاضر ويجادل في باريس وقيام القديس برنارد بتفنيد آرائه وتعاليمه ومقارعته الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، فأثار جدلاً علمياً رائعا وحركة فكرية نشطة وهرع إليهما آلاف الطلاب وهو أمر لم تألفه باريس من قبل وأخذ الإقبال يتزايد على المعاهد وبدأت الجامعات تظهر في النصف الثاني منه ظهورا جليا واضحاً.

وفي المرحلة الثالثة أين أخذ عدد الطلاب في تلك المعاهد في ازدياد مطرد حتى أنهم بلغوا الآلاف في باريس وحدها وإزاء ذلك وحتى يضمنوا لأنفسهم سبل الأمن والسلامة والاستقرار في هذه المراكز العلمية الجديدة والبعيدة عن أوطانهم قرروا أن ينشئوا فيما بينهم اتحاداً أو نقابة على نسق ما كان جاريا في العصور الوسطى بين طوائف الجار والعلمال والصناع. والهدف أن يكون هذا الاتحاد بمثابة شخصية معنوية تنظر في مشاكلهم وترعى شؤونهم ومصالحهم الخاصة والعامة. لقد ظل

[50] يوسف، 122-123

هـــذا النظـــام شـــائعاً فقـــد لقـــي الطـــلاب كـــثيرا مـــن المشـــاكل خصوصـــا في جانب وسائل وسبل الراحة مـــن حيـــث المـــأوى والمأكـــل وقـــد عولجـــت هـــذه المشكلة عندما افتتح بعـــض المدرســـين نـــزلاً للمـــأوى والمأكـــل لم يكـــن يســـمح للإقامة به سوى للطلبـــة المغتـــربين كمـــا أقيمـــت نـــزل لصـــالح المفقـــراء كـــان ينفق عليها من الإعانات الخيرية خاصة.

وجاءت بعـــد ذلـــك المرحلـــة الرابعـــة والأخـــيرة في تكـــوين الجامعـــات وتتمثـــل في الاعتـــراف الرسمـــي بشخصـــيتها وكيانهـــا مـــن جانـــب الســـلطات الدينيـــة والدنيوية علـــى الســـواء، ولـــذلك أصـــبح للجامعـــات مـــن الحقـــوق والخاصـــة بها باعتبارها وحـــدة مســـتقلة لهـــا كيانهـــا ومقوماتهـــا مـــا يضـــمن لهـــا ســـطلة تنظيم أمور العلـــم والتعلـــيم فيهـــا ومـــنح الـــدرجات العلميـــة وتحديـــد المنـــاهج والمقـــررات ومـــا إلى ذلـــك ممـــا يضـــمن لخريجيهـــا حـــق مزاولـــة مهنـــة التدريس51

ثالثاً. نماذج لبعض الجامعات الأوربية في العصور الوسطى

جامعة بولونا بباريس

تعتبر جامعة بولونـــا أهـــم جامعـــات البحـــر الأبـــيض المتوســـط وأضـــخمها مـــن حيث النشـــأة والنمـــو والمعـــوف أن هـــذه الجامعـــة جـــاءت وليـــدة الدراســـات القانونية في القرن الثـــاني عشـــر علـــى أيـــام أرنويـــوس وبفضـــل شـــهرة بولونـــا قصدها الطـــلاب مـــن مختلـــف أنحـــاء العـــالم البعيـــدة. هـــذه الجمـــوع المغتربـــة والفقيرة من الطـــلاب كـــانوا بمثابـــة النـــواة الأولى الـــتي نشـــأت منـــها الجامعـــة فقد نظـــم هـــؤلاء الطلبـــة أنفســـهم في نقابـــات تســـاعدهم في شـــؤون المأكـــل والمشرب والمأوى والكتب بـــل ســـرعان مـــا أصـــبحت تـــتحكم حـــتى في هؤئـــة التدريس لأن دخل الأساتذة كـــان متوقفـــاً علـــى مقـــدار مـــا يحصـــل عليـــه مـــن طلبته مما جعل رئيس هذه النقابـــة الـــرئيس الفعلـــي للجامعـــة وســـران مـــا أنشـــأ كذلك المدرســـون نقابـــة خاصـــة بهـــم واضـــعين منـــها شـــروطا لمـــنح إجـــازة

---

[51] يوسف، 124-125

التدريس والسماح أي عضو جديد بالدخول في النقابة ومن هذين النوعين من النقابة تمت النظم الجامعية وتطورت في العصور الوسطى52. ولقد طغت الروح العلمانية على جامعة بولونا بعكس ما جرى في غيرها من الجامعات فلم يكن في بولونا كلية دينية على الإطلاق قبل سنة 1364م، بل حل القانون الكنسي بها محل علم اللاهوت.

لقد انتشرت الجامعات في جميع أنحاء إيطاليا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر فقد نشأت بعضها من جامعة بولونا بهجرة الأساتذة والطلاب من هذه الجامعة ومن ذلك أن بليوس غادر في عام 1182م. ورغم مرور الزمن وظهور اختصاصات أخرى مثل الفنون والطب واللاهوت فإن بولونا ظلت جامعة رفيعة القدر بالنسبة للقانون المدني. وحيث كانت الكنيسة تهيمن على حركة التعليم الجامعي في أوربا خلال العصور الوسطى ففي بولونا تمسكت الكنيسة بضرورة موافقة الأسقف على المتقدمين للدراسات العليا في القانون. وفي جامعة باريس كان تدخلها أشد عمقا في نظام الهيئة التدريسية فقد ظهر التوحيد بين وظيفتي رئيس الجامعة ورئيس أساقفة المدينة وتعددت سلطات أمين الكاتدرارائية في باريس حد الموافقة على اختيار المرشحين لوظائف التدريس بل جرى وضع شروط لا بد من الالتزام بها فلا أحد يحاضر في الففنون في باريس حتى يصل إلى سن الحادية والعشرين ويكون قد تعلم وسمع المحاضرات على الأقل لمدة ست سنوات قبل أن يحاضر إلى غير ذلك من تدخلات الكنيسة.

ولا يمكن أن نغادر إيطاليا دون التعرف على جامعة سالرنو وهي أقدم جامعة من بولونا فقد حازت على شهرة كبيرة في دراسة الطب منذ القرن التاسع ميلادي وكانت سالرنو قد خضعت لليونان لفترة طويلة

---

[52] عاشور، 210-213

لهـذا استـفادت مـن المخطوطـات اليونانيـة الـتي ظلـت محفوظـة خاصـة في مكتبات الأديرة البندكتيـة.ولقـد تطـورت هـذه المدرسـة الطبيـة منـذ أواخـر القـرن الثـاني عشـر إلى جامعـة لتـدريب الأطبـاء وتخـريج الجـراحين المتخصصـين وقـام بالتـدريس فيهـا قسـطنطين الإفريقـي الـذي ولـد في قرطاجنة وكان يعـرف العربيـة وحمـل معـه إليهـا كتـب العـرب في الطـب ومعرفتهم الطبية وقضى وقتا في ترجمتها إلى اللاتينية53.

جامعة باريس :

من المعروف أن جامعـة بـاريس نشـأت مـن مدرسـة الكاتدرائيـة ولمـا كـان التطور الجامعي جـاء تـدريجيا وبطيئـا فلأننـا لا نسـتطيع تحديـد تـاريخ معـين نقـول أن مدرسـة بـاريس خلعـت فيـه ن نفسـها صـفتها الكاتدرائيـة واخذت صفتها الجامعيـة الخالصـة ولكـن مـا يمكـن قولـه أن هيكـل جامعـة باريس تكون في أواخر القرن الثـاني عشـر عنـدما أنشـأ هيئـة التـدريس نقابـة خاصة بهم وأخذ نفـوذه في الازديـاد حـتى صـات هـي المهيمنـة فعـلا علـى شؤون الجامعة.

ولقد مـرت هـذه النقابـة أو رابطـة الأسـاتذة الـتي كانـت أسـاس جامعـة بـاريس بعـدة خطـوات إلى لأأن أصـبحت تحـادا معترفـا بـه مـن كـل السلطات ففي سـنة 1210 أصـدر البابـا أنوسـنت الثالـث مرسـوما اعتـرف فيـه بيقابـة المعلمـين ببـاريس واعتمـد قوانينـها المدونـة وفي سـنة 1231 أعطى لابابـا جريحـوري التاسـع امتيـازات خاصـة لأعضـاء جامعـة بـاريس كفلت لهم كفالة حقـوقهم. وقبـل لأن ينفضـي القـرن الثالـث عشـر انقسـم مدرسـو جامعـة بـاريس إلى أربـع سـلطات أو كليـات كمـا نسـميها الآن: كليـة اللاهـوت، القـانون الكنسـي، الطـب، القنـون. و لم يكـن القـانون المـدني بعـد عـام 1213 مكـان في جامعـة بـاريس وكـان المنـهج يبـدأ بالفنون السبعة ثم يرتقي إلى الفلسـفة وينتـهي بعلـوم الـين وكـان يحكـم كـل

---

[53] يوسف، 245

جماعة من الطلبة وكليل أو مــدير وكــل كليــة عميــد. وكــان لطــلاب الكيــة الفنون مير يرأســهم هــذا الأخــير الــذي أصــبح قبــل عــام 1255 كــديرت للجامعة كلها54. ولقــد كانــت طريقــة التــدريس هــي المحاضــرات والســبب في ذلك أنه لم يكن في مقــدور كــل تلميــذ شــراء الكتــب الــتي يجــب عليــه دراستها أو يحصل على نشــخ منــها مــن دور الكتــب وكــانوا يجلســون علــى الطوار أو علــى الأرض وكانــت لــوئح الجامعــة تحــرم علــى المــدرس أن يقــأ محاضراته على الطلاب بل عليــه "أن يــدرس ارتجاليــا بــل كــان يحــم عليــه أن يقطــع الكــلام وكــان الطــلاب القــدامى يحــذرون الطلبــة الجــدد مــن أداء الأجر للأستاذ حتى يســتمعوا إلى محاضــراته وكــان التعلــيم ينــتعش مــن حــين إلى آخر بمناقشــات عامــة تجــري بــين المدرســين والطلبــة المتقــدمين والزائــرين الممتــازين. وكانــت هــذه المناقشــات تجــري في شــكل مقــرر محــدد يســمى النقاش المدرسي وهو رسمــي إلى جانــب وجــود مناقشــات أخــرى غــير رسميــة يسمونها أي شئ نحب quodiberta.

وكــان معظــم الطــلاب في جامعــة بــاريس يعيشــون في مضــائف تؤجرهــا جماعات منظمــة مــن الطــلاب كمــا كانــت بعضــها تــأوي فقــراء الطــلاب نظــير أجــر اسمــي وبلــول عــام 1231 أنشــأ طوائــف الرهبــان والكنــائس المحســنون مضــايف ومســاكن أوســع للطــلاب وحســبت عليهــا الحبــوس وخصت بأقساط ســنوية خفضــت بعــض نفقــات العــيش علــى الطــلاب وفي عــام 1257 وهــب روبــرت دي ســوربون قــس القــديس لــويس بيــت السوربون المال اللازم لإيواء ستة عشــر طالبــا مــن طلبــة علــوم الــدين، ومــن هذا البيت نشأت كلية السوربون55.

جامعة أكسفورد بأنجلترا:

لقد أصحت مردســة أكســفورد بــأنجلترا في القنــر الثــاني شــعر مدرســة عامــة أي جامعــة ففــي عــام 1209 كــان في أكســفورد ثلاثــة آلاف طالــب

---

54 ول ديورانت، قصة الحضارة، ج.17-18، ص.37

55 نفسه، 39-40

ومدرس وكان فيها ما كـــان في جامعـــة بـــاريس أربـــع كليـــات: كليـــة الفنـــون وكلية اللاهـــوت وكليـــة الطـــب وأخـــيرا كليـــة قـــانون الكنيســـة أمـــا القـــانون المدني فقد أغفلته الجامة بل استقر في دور المحاكم في لندن.

كـــان بجامعـــة أكســـفورد قاعـــات ممحاضـــرات وكـــان المدرســـون ســـيكنون مع الطلاب ولم ينقصـــض القـــرن الثالـــث عشـــر حـــتى كانـــت القاعـــات هـــي الأقسام الماديـــة والتعليميـــة الـــتي تكونـــت منـــها الجامعـــة ومـــع مـــرور الوقـــت اغتنـــت الكليـــات الأنجليزيـــة بفضـــل الهبـــات والـــنح الدراســـية المقدمـــة مـــن ظرف المولـــك وغيرهمـــن ففـــي عـــام 1280 أنشـــئت قاعـــة الجامعـــة بهيبـــة ن وليام الدرهامي كبير أساقفة روان rouen.

لقد كـــان الأســـاتذة يختـــارون واحـــدا مـــن بينـــهم ليكـــون الزميـــل الأكـــبر أو الرئيس وهـــو الاســـم الـــذي يعـــرف بـــه عمـــداء الكليـــات الأنجليزيـــة في هـــذه الأيـــام ولم يحـــل عـــام 13600 حـــتى كانـــت أكســـفورد مركـــزا لنشـــاط الـــذهني والنفـــوذ العـــام لا تفوقهـــا في ذلـــك ســـوى بـــاريس وكـــان أشـــهر حرجيها كلهم هو روجـــر بيكـــون الـــذي التـــف حولـــه العديـــد مـــن الرهبـــان وكونـــوا جماعـــة ممتـــازة مـــن رجـــال العلـــم وكـــان زعـــيمهم روبـــرت جروســـكيتس الـــذي درس القـــانون والطـــب والعلـــوم الطبيعيـــة ونـــال درجتـــه في علـــوم الـــدين في 1189 وأصـــبح أســـقف كنكـــولن 1235 هـــذا الأخـــير الـــذي لخـــص علـــوم زمانـــه في موســـوعة للميـــة وكـــان أول مـــن أنشـــأ أول صندوق يقرض الطـــلاب المـــال بغـــير فائـــدة. يمكـــن القـــول أنـــه مـــن الـــذين أوجدوا بأعمالهم الجليـــة هيبـــة أكســـفورد العاليـــة ومكانتـــها العطيمـــة في عـــالم العلم والعقل.

إن جامعـــة أكســـفورد فرفـــت هجـــرة العديـــد مـــن الطلبـــة بســـبب أن أحـــد الطلبة قتل امرأة فهـــاجم أهـــل البلـــدة مســـاكن الطبـــة وقتلـــوا اثـــنين أو ثلاثـــة ليتوجه الطلبة إلى جامعة كمبردج56.

---

[56] عاشور، 218-219

ويتضح من خلال هذه النماذج لجامعات العصور الوسطى أن الجامعة في أدوارها الأولى لم تحتوي كل أقسام التخصص المعروفة من القانون والطب والاهوت والفنون المختلفة فقد جازت بعض الجامعات على شهرة في فروع معينة من الدراسة فحسب ما توفر لها من الأساتذة المتخصصين فتخصصت جامعة مونبلييه في فرنسا وجامعة سالرنو في إيطاليا بدراسة الطب واشتهرت بولونا بدراسة القانون وهذا لم يمنع بعض الجامعات من وجود أقسام أخرى لدراسة المواد العلمية المختلفة ففي بولونا ضمت قسما لدرساة الفنون الحرة واخر لدراسة الطب. وما لبثت جامعات العصور الوسطى أن انتظمت أقسامها الكبيةر وعرفت باسم الكليات فتكونت كل جامعة من أربع كليات: الأداب واللاهوت القانون والطب وانقسمت الدراسة في كلية الآداب إلى مجموعتني الأولى هي المجموعة الثلاثية واحتوت على قواعد اللغة اللاتينية والمنطق والبلاغة والثانية هي المجموعة الرباعية واختصت بالموسيقى والحساب والهندجسة الفلك أي أن درساة الآداب اهتمت بتقديم برنامج أساسي لتعليم الفنونالسبعة العقلية كما زاد الاهتمام بعض الجامعات بالعلوم الطبيعية ولاسيما علم الحيوان. كما لم يكن للجامعات في الكثير من الأحيان مبان مستقلة فكانت المحاضرات تلقى أحيانا في غرف ملحقة بالكاتدرائية أو في أروقتها وفي القرن الثالث عشر كان بعض الأساتذة يستأجرون حجرات خاصة بطلابهم أي أن الجامعة لم تكمن لها مبان خاصة و لم تكن حرما جامعيا57.

رابعاً. الامتحانات وحياة الطلاب:

يبدو أنه لم يكن تعقد امتحانات في أثناء دراسة المناهج، لوكن كان هناك إلقاء ونقاش وكان يمكن إقصاء العاجزين في خلال السنة ثم نشأ حولى متصف القرن الثالث عشر عادة إلزام الطالب بعد أن يمضي خمس

[57] مرسي، 134-135

سنين مقيما في الجامعة للدراسة أن يؤدي امتحانا أوليا أما لجنة وكان هذا يتضمن أولا اختبارا خاصا منفرادا يشمل إجابات عن الإسئلة وتضمن ثانيا مناقشة علنية يدافع الطالب فيها عن موضوع أو موضوعين ويفند اعتراض المعترضين ثم يختم النقاش بتلخيص النتائج58.

كان الذين يجتازون هذه الاختبارات الأولية بنجاح يسمون البكلاري baccalari أي الأتباع وكان يسمح لهم أن يخدموا أستاذا بوصفهم مدرسين مساعدين أو محاضرين . وكان بوسع التابع أن يواصل درساته وهو مقيم ثلاث سنين أخرى فأذا رأى أستاذه خلقا بالتقدم إلى الامتحان قدم إلى ممتحنين يعينهم رئيس الجامعة وكان ينتظر من الأستاذ أن لا يقدم طالبا يتضح أنه غير مستعد للامتحان إلا إذا كان من ذوي المكانة البارزة. وكان الامتحان يعد لكي يناسب مقدرة الطالب وكانت الصفات الخليفية من الموضوعات التي سيشملها الامتحان لذلك فإن الجرائم الخلقية التي يرتكبها الطلاب قد تحول بينهم وبين الدرجات العالية. فإذا اجتاز الطالب هذا الامتحان العلني والأخير بنجاح أصبح أستاذا أو دكتورا وعبله في هذه الحالة أن يدرس وهم يحمل على رأسه قلنسوة ويقبله أستاذه ويباركه ثم يجلسونه على كرسي الأستاذية فيلقي محاضرة افتتاحية ويعد هذا بمثابة بداية كأستاذ محاضر وكان من مستلزمات هذا التخرج أن يدعو جميع الأساتذة أو أكثرهم إلى وليمة يقدم لهم الهدايا وبهذا أيضا ينظم إلى نقابة الأساتذة.

ولقد كانت هناك ثلاث درجات علمية: الأولى منها هي درجة الباكالريوس ويطلب من المترشح لها أن يدرس كتابين في النحو وخمسة كتب في المنطق فإذا نجح فيها منحته الجامعة درجة bachelor of arts أما الدرجة الثانية فهي درجة الليسانس وتحتم على طالبها أن يدرس نحو

---

[58] نفسه، ص.55

سنتين في القراءة والاطلاع وشرخ النصوص يؤدي امتحانا أمام لجنة خاصة تجيز له حملها إذا وقف في الامتحان وتجيز له ممارسة مهنة التدريس. أما الدرجة الثالثة فهي درجة الدكتوراه أو الأستاذية وتحتم على طالبها قضاء نحو خمس إلى ست سنوات في دراسة الآداب أو القانون أو اللاهوت وهذه الشهادة تسمح لحاملها أن يصبح أستاذا بإحدى الجامعات[59].

خامساً. حياة الطلاب:

لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة فقد يكون في أي سن وقد يكون قسا أو راهبا أو رئيس دير أو تاجرا وقد يكون متزوجا أو غلاما في الثالثة عشرة من عمره كما لم يكن الذي يرغب في دخول الجامعة اجتياز امتحان معين بل كان يشترط فيه فقط أن عارفا باللغة اللاتينية وأن يكون قادرا على أداء أجر زهيد كل مدرس يدرس منهجه عليه فإذا كان الطالب فقيرا فإنه قد يستفيد بمنحة دراسية أو معونة تسلمها إليه قريته أو كنيسته أو أحد أصدقائه أو أسقفه. وكان الطالب الذاهب إلى الجامعة أو العائد منها ينتقل عادة بالمجان ويجد الطعام والمأوى في الأديرة التي في طريقه. ولمن يفرض على الطلاب ملابس جامعية خاصة بل كان عليه أن يشد ثوبه الخارجي بالأزرار وألا يمشي حافي القدمين إلا إذا كان جلبابه يصل إلى عقبيه. وكان الأساتذة يتميزون بلبس القبعة وهي حرملة حمراء أرجوانية ذات حاشية من جلد السنجاب كما كانوا في بعض الأحيان يعطون رؤوسهم بقلنسوة مربعة في أعلاها خصلة. كان الطلاب يسلون أنفسهم بالكلاب والصقور والموسيقى والرقص والقصص وشرب الخمر والجعة في الأعياد والاحتفالات. وكان الطالب في جامعة باريس في منزلة رجل الدين يتمتع بحصانته فكان يعفى من الخدمة العسكرية ومن الضرائب التي تفرضها الدولة على غيره ولا

---

[59] مرسي، ص.138

يحاكم أمام المحاكم غير الدينية وكان ينتظر منه أن يدخل لسلك رجال الدين وكان في وسعه إذا تزوج أن يظل طالبا ولكنه في هذه الحال يفقد امتيازات رجال الدين ولا يستطيع الحصول على درجة علمي.

سيرة: الباحث الدكتور جمال الدين فالح الكيلاني- بقلم العلامة

ا.د.إبراهيم خليل العلاف

أستاذ التاريخ الحديث –جامعة الموصل

صديق عزيز ، أتابع منذ فترة طويلة ، نشاطاته العلمية، ولي معه علاقة تبادل علمي .... هو جمال الدين بن فالح بن نصيف بن جاسم بن أحمد الحجية بن عبد الكريم بن عبد الرحيم بن خميس بن ولي الدين محمد بن عثمان بن يحيى بن حسام الدين بن نور الدين بن ولي الدين بن زين الدين الكبير بن شمس الدين بن شرف الدين بن محمد الهتاك بن عبدالعزيز بن الباز الاشهب الشيخ عبدالقادر الكيلاني بن ابي صالح موسى بن عبدالله الجيلي بن يحيى الزاهد بن محمد المدني بن داود امير مكة بن موسى الثاني بن عبدالله الصالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن المجتبى بن اسدالله الغالب علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنهم اجمعين،من الأسرة الكيلانية، ذرية (الشيخ عبد القادر الكيلاني الحسني العلوي(قدس الله سره العزيز.

من مواليد 1972، ومنذ طفولته أولع بحب التاريخ ،و قراءة الكتب المتنوعة ،تأثر بوالده الأستاذ فالح الحجية الكيلاني –الأديب والشاعر،وأخذ عنه حب الأدب والمعرفة وتذوق الشعر،وبحكم نشأته في الخالص وعلاقة القرابة التي تربطه بالعلامة سالم عبود الالوسي ،تعرف بالعلامة مصطفى جواد وتراثه ،واهتم منذ بواكير حياته العلمية بالتراث القادري والذي بات تخصصه الدقيق،ويعد نفسه من تلاميذ الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ومدرسته التاريخية،مارس التدريس في التعليم الابتدائي

والمتوسط والثانوي ، كما حاضر في جامعة بغداد والجامعة المستنصرية واتحاد المؤرخين العرب وجامعات القادسية والبصرة وواسط .

حصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ من كلية التربية -ابن رشد -جامعة بغداد . كما نال شهادة (دبلوم)في اللغة الانكليزية من معهد المعلمين.

لم يقف عند هذا الحد ، بل غذ السير ، وأكمل دراسته وحصل على شهادة (دكتوراه) فلسفة في التاريخ الإسلامي من جامعة سانت كلمنتس العالمية. ولحبه التاريخ والدراسات التاريخية انتمى إلى" معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا التابع لاتحاد المؤرخين العرب ببغداد " ، وحصل على شهادة ماجستير آداب في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية . حصل على لقب "باحث علمي" من مركز دراسات التاريخ والوثائق والمخطوطات سنة 1998 .

والدكتور الكيلاني عضو اتحاد المؤرخين العرب 1996وعضو الهيئة العربية لكتابة تاريخ الانساب1998 وعضو جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق1995 وعضو (شرف) لجنة الدراسات القادرية المغرب1997. مشرف مركز دراسات الإمام عبد القادر الجيلاني المتخصص بالتراث والتاريخ والأنساب القادرية 2011 .

كرم بالعديد من الشهادات التقديرية من المجمع العلمي العراقي1996 والهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب 2000 ،والهيئة العامة للاثار1997 وجامعة بغداد1999 وغيرها.

اهتم بتاريخ الأنساب وشغل نفسه بهذا اللون المهم من الدراسات التي تحتاج إلى معرفة بأمور كثيرة .وقد أجيز في مجال دراسة وتدقيق الأنساب من ثلة من الأساتذة العراقيين المعروفين أمثال الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف والأستاذ سالم عبود الالوسي والأستاذ اللواء احمد خضر العباسي والأستاذ الشيخ خليل الدليمي والأستاذ جمال الراوي .ومنذئذ قام الدكتور الكيلاني بدراسة وتدقيق العشرات من شجرات النسب ومن كافة أنحاء العراق وبموجب كتب رسمية من الهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب وغيرها ، ويفخر بأنه حضر عدة جلسات للعلماء الأعلام كل من الشيخ العلامة عبد الكريم محمد المدرس-مفتي الديار العراقية-والعلامة الدكتور حسين علي محفوظ والعلامة الدكتور علي الوردي و -العلامة الدكتور حسين أمين

كما أن لديه العديد من البحوث والدراسات والكتب .من كتبه المنشورة :كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني -تفسير جديد مراجعة الأستاذ الشاعر فالح الحجية الكيلاني ،مكتبة المصطفى ، القاهرة ،2009.وكتاب الشيخ عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة تقديم الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ،مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي – بغداد 2011. وهو بالاصل رسالة باشراف الدكتورة لقاء الطائي والدكتور رؤوف وكتاب " بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي , دراسة وتحقيق " ،تقديم الدكتور حسين أمين شيخ المؤرخين –نشر على نفقة السيد احمد الكيلاني ،الجزائر2011 .وكتاب " أصول التاريخ الإسلامي " ،مراجعة الدكتور حسين علي محفوظ (مخطوط) 1999.وكتاب " تنقيحات دراسة تحليلية لنسب الإمام عبدالقادر الجيلاني" ، مراجعة الدكتور عبد القادر المعاضيدي (نشر محدود) منه نسخة محفوظة في المكتبة القادرية1996. وكتاب" دراسات في التاريخ الأوربي" ، تقديم الدكتور كمال مظهر احمد (معد للنشر).

ومن بحوثه ودراساته :عرض كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني - تفسير جديد في مجلة فكر حر 2009.وعرض مخطوطة مهجة البهجة ومحجة اللهجة (كتاب) منشورة في جريدة الصباح 2005.ومقالة مصطفى جواد ومخطوطة نادرة عن الكيلاني جريدة الصباح 2006. ومقالة رشيد عالي الكيلاني ابن ديالى المشورة في جريدة العراق 2002.ومقالة المقدادية أصل التسمية المنشورة في جريدة العراق 2002.ومقالة" الشرق الأوسط واصل التسمية" المنشورة في مجلة كلية الاداب جامعة عين شمس 2009.ومقالة عن " براغماتية السيد عبد الرحمن الكيلاني النقيب ",مجلة فكر حر2009.ومقالة عن "الشيخ عبدالقادر الكيلاني: جيلان العراق لا جيلان طبرستان،مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس 2009.وتفسير الجيلاني – دراسة في نسبة التفسير للمؤلف، مجلة رؤى 2010. و"المؤرخ هشام جعيط –. دراسة في رؤيته للسيرة النبوية " ، مجلة رؤى 2010

هذا فضلا عن عشرات المقالات المنشورة على شبكة الانترنت وضمن مواقع كثيرة ومن الموضوعات

التي كتبها موضوعات ،عن عصر الرسالة وعصور الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين والعصر الحديث والمعاصر والشخصيات العربية والإسلامية وبعض الشخصيات الغربية ،مثل مقالات تدور حول الشيخ عبد القادر الجيلاني وذريته في العالم ،وأهمية ثورة الحسين في التاريخ العربي الإسلامي، و إبان بن عثمان المؤرخ المبكر،والإمام الغزالي، والإمام الرفاعي، والإمام أبو مدين ،والإمام البخاري ،والشيخ ابن تيمية وقوميته، والشريف البعقوبي،الامين والمأمون والميكافلية ،والطريقة القادرية المبكرة ،و معنى الباز الاشهب،و التراث الصوفي – دراسة أولية والإمام أبو إدريس البعقوبي، والمغول، وجنكيز خان، وهولاكو خان، وتيمورلنك، والدولة الفاطمية وخلفاءها، وبغداد، وسمرقند، وكابول، ودلهي، والمقدادية أصل التسمية، والناصرية العراقية، والصويرة العراقية، والعزيزية العراقية، وال بابان، وال السعدون، ومحمد الفاتح ،وسليمان القانوني ،ومراد الرابع، وعبد الحميد الثاني، والشرق الأوسط ،والمكنا كارتا، وعبد القادر الجزائري، وجمال الدين الافغاني ،وعبد الكريم قاسم ،والحبوبي الشاعر والإمام، والسيد محمد باقر الصدر، والمؤرخ الدروبي وجهوده في تدوين تاريخ الأسرة القادرية في العهد العثماني، والرينسانس ،ومترنيخ، وبسمارك، وهتلر، وميكافللي والميكافلية، وونستون تشرشل، وجان جاك روسو ،والثورة الفرنسية، ولويس الرابع عشر ،ولويس السادس عشر، وماري انطوانيت ،ونابليون الأول ،ونابليون الثالث، وقراءة في كتاب-لينين-خطوة إلى الإمام خطوتان إلى الوراء، وتلخيص كتاب قصة الفلسفة للمؤرخ ويل ديورانت، وتاج محل ،والأزهر، والقرويين، وبدر شاكر السياب، و" الصراع السياسي والديني في اليمن قبل الإسلام -نجران نموذجا " .

درس التاريخ على أيدي العديد من أساتذة التاريخ في العراق منهم الأساتذة الدكاترة عماد عبد السلام رؤوف وكمال مظهر احمد وفاروق عمر ,وعبدالرزاق الانباري وعبد القادر المعاضيدي وخاشع المعاضيدي وعبد القادر الشيخلي وجعفر عباس حميدي ويقظان سعدون العامر وحمدان الكبيسي وقحطان عبد الستار الحديثي وهاشم يحيى الملاح وعبد الامير العكام وصادق ياسين الحلو ومفيد كاصد الزيدي ومحمد احمد الشحاذ وعبد الامير دكسن وعبد الجبار ناجي وفاروق عباس وهيب وخضير الجميلي وطارق نافع الحمداني ومحمد جاسم المشهداني ومحمد ياقر الحسيني ومزاحم علي عشيش البعاج .وناهض عبدالرزاق القيسي ومحي هلال السرحان

من آراءه" أن التاريخ لايعرف اليوم والأمس والغد وإنما هو نهر الحياة يمضي الى الاجل المضروب الذي قدره علام الغيوب، فالتاريخ كله تاريخ معاصر ،نعم له تقسيمات علمية، ولكنه يعيش معنا ويهمنا وعلينا أن نستفاد منه في حياتنا كلها ويستند في هذا الرأي على أن استقراء التاريخ خير من التجارب ،وان اختيار سنة بعينها أو حدث بذاته لتحديد نهاية عصر من عصور التاريخ أو بداية عصر آخر ،يبدو ، امرا بعيدا عن الحقيقة والواقع لان التطور التاريخي يمتاز دائما بالتدرج والاستمرار وتداخل حلقاته بعضها ببعض ، وان وقائع التاريخ الكبرى عائمات جليد طرفها ظاهر فوق الماء ، وكتلتها الرئيسية تحت سطحه ومن يريد استكشافها عليه أن يغوص في الأعماق،والفرق بيننا وبين الغرب اننا نعيش في التاريخ فقط وهم يفهمونه ويستغلونه لتحقيق مصالحهم،و التاريخ هو طريق الإنسانية الى الحضارة، لأنه ضوء ينير الماضي لرؤية الحاضر و المستقبل ، فجذور أنظمتنا السياسية ،والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية ،تمتد ."عميقا في تربة الأجيال الماضية

ويعتقد جازما "أن الدنيا سراب ووهم وخداع وصنم كبير , بحلوها ومرها وبعقدها ومعقديها فهي تراب ,ورغم بريق الحياة اللاهثة وراء أمل كاذب ,وسيطرة مجتمع ثيوقراطي فأنه فرز بيروقراطية مسيطرة,بلا رحمة على مجتمعاتنا الشرق أوسطية في زمن تعولمت فيه الدنيا وأصبحت قرية صغيرة ,وأصبحت ."للإنسان(العادي) مكانة مكينة في إدارة مجتمعاته لا في إدارة بيته فحسب

وهو يرى "أن الثقافة أو ما يصطلح عليه بالانتلجيستا والوجود او الانطولوجيا ,والأدب والفن والإبداع والمعرفة , مصطلحات نقدسها ظاهرا ,ولانهتم بها باطنا , ويتساءل أين ارتعاشات بدر شاكر السياب وحبيبته اقبال ؟ وأين الجواهري ودجلته؟ واين طه حسين وايامه ؟ واين العقاد ونقده؟ واين شعرائنا العظام من امروء القيس وقفا نبك من ذكرى حبيبته ؟اين المتنبي وانفته ؟ اين ابن رشد وفلسفته؟ أين ابن حزم وطوق حمامته اين عبدالقادر وتصوفه وأبو حيان التوحيدي وانسنته وابو العلاء وأحزانه و أين شوقي وحافظ والرصافي والزهاوي والحبوبي ,نسينا كل ارثنا العظيم ورجعنا نقلب خرافات عجائز ماتت ورجعنا" لعصر سي السيد" كما حكاه محفوظ ,لنظر للغرب وهو يقدس افلاطون المثالي وارسطو المضحي وسقراط العقلاني,وفرانسيس بيكون المجدد وجان جاك روسو الرومانسي وعما نوئيل كنت سيد الفكر الحديث ونتيشة وزرادشت الجديد,وميكافللي وسياسته التي لاترحم ,وجون ستيوارت مل وبراكماتيته ,وجان بول سارتر ووجوديته , وتراهم يهيمون بتولستوي والحرب والسلام ودستوفسكي والجريمة والعقاب وانطون تيشخوف ومسرحلته وكوكل ومعطفه العظيم , وفكتور هيجو والبؤساء ,وديكنز

وقصته بين المدينتين وهمنجواي ووداعا للسلاح وليس آخرهم ماركيز صاحب مائة عام من العزلة والحب في زمن الكوليرا ,ود جي جي موبسان وكافكا .
ويتمنى علينا - في يوم من الأيام- أن نكرم اديبا او نحتفي بعالما بحياته لابعد مماته ....ونكرمه لذاته لا لايديولوجيا تبناها ووافقت هوى انسان أو جماعة,في مجتمع (الميدل ايست) الذي حرص نابليون ومترنيخ وبسمارك وتشرشل وهتلر وادرو ولسون ,ان يبقى بعيدا عنهم ,وأراده برنارد لويس وجيب وبراون وبارتولد وكراتشوفسكي وجولديزيهر وغيرهم من عمالقة الاستشراق ان يبقى تابعا وضيعا لهم. وهو يعد قراءه ان يعمل شيئا من اجل إحياء تراثنا الإنساني وابرز صفة فيه هي تقبل الاخر مهما كان رأيه وشكله وانتماءه" .ومن الآراء التي يعتز بالتمثل بها قول الشيخ عبد القادر الكيلاني : ((اعمل الخير لمن يستحق ولمن لايستحق والأجر على الله)) . وكذلك بقوله : ((اود لو ان الدنيا بيدي فاطعمها للجياع .((
*المصدر موقع الدكتور ابراهيم العلاف.